

حَائِثَةُ الْإِعْغَابِ

صُورَةٌ أَدَبِيَّةٌ لِلْمَدِينَةِ الْمَنُورَةِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ الْهَجْرِيِّ

تقديم الأستاذ
الدكتور غازي عبيد مدني

تأليف
د. عاصم حمدان علي حمدان

دار القبلة للثقافة الإسلامية

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

دار القبلة للثقافة الإسلامية



الكلية العربية السعودية - جدة - ص.ب. ٩٢٢٠ - الرمز ٢١٤٤٢ - ت. ٠٦٠٤٤٠٤٤٠ / ٦٦٥٤٤٠٤٤ / فاكس ٦٦٥٤٤٠٤٤





جاءة الغائب

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور غازي عبيد مدني (*)

المدينة المنورة ، طيبة ، المسكينة ، و ، تعددت
وكثر مسمياتها . وقد درج العرب على الإكثار من الأسماء لمن أو لما
يُعظَّمون .

المدينة المنورة ضاربة في أعماق التاريخ ، تكاد حجاتها أن تنطق
فتروي المجهول من التاريخ ، وتصحح المغلوط منه . تاريخها هو
التاريخ نفسه من قبل العرب العاربة وأيامهم وبعدهم .

المدينة المنورة زهت على جميع مدن الأرض ، واكتسبت تقديساً
وشرفاً وفخراً بهجرة رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ،
وإقامته ومن ثم مشواه . هاته الخصيصة أكسبتها منزلة في قلوب
المسلمين ستظل تعيش ما ظل المسلمون يَعْمُرُونَ الأرض .

المدينة المنورة تهفو قلوب المسلمين إليها دائماً وأبداً ، فما بالناب من
يسعده الحظ بالعيش على أرضها ، يَتَنَسَّمُ هواءها يتغذى دمه وعظمه
من مُنتَجِ أرضها ولا غرابة أن نجد الدكتور عاصم حمدان ، وقد فتح
عينيه على خُلُقِ وأدب طيبة الطيبة أن تظل في خاطره لا ينساها بل
يقول لنا أن لن ينساها .

(*) وكيل جامعة الملك عبد العزيز - سابقاً - ورئيس مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي .

لماذا حارة الأغوات !؟

المدينة ، أي مدينة ، في الفكر الإسلامي وتبعاً لما يهدف إليه الإسلام ذات صورة واضحة ومميزة . الصلاة هي المحور الذي يدور حوله كل شيء ، والصلاة تقام في المسجد ، فالمسجد ، بذلك هو مركز المدينة . كل شيء يلتف حوله ، وكل الطرق تؤدي إليه . وطيبة ، المدينة المنورة تجسيد للفهم الإسلامي في هندسة المدن ، وفي جعل الناس يتمحرون حول مركز واحد يجمعهم كل يوم وليلة .

الحرم الشريف يخدمه فئة من الناس نذروا أنفسهم ، ومنذ نعومة أظافرهم نذرهم آبائهم وما انفكوا كذلك إلى عهد قريب يطلق عليهم مُسمَى الأغوات . وهم ولوقوفهم على خدمة الحرم الشريف تكون سكناهم حوله وبالقرب منه . فلا يصبح ولا يمسي أحد يسعى إلى الحرم إلا ماراً بديارهم أو بالقرب منها . فسميت المنطقة بكاملها التي تجاور الحرم الشريف بمنطقة الأغوات تكريماً لهم .

كل من عاش في المدينة تنسم عبر حارة الأغوات . فهو لا بد وأن يعود إلى بيته وفي الحالتين يمر بأروقة منطقة الأغوات . من سكن ومن زار المدينة المنورة تظل صورة تلك المنطقة في مشاعره لا ينساها ولا يريد أن ينساها .

أبناء المدينة المنورة ، وخاصة في المرحلتين المتوسطة والثانوية ، كما نشأ الدكتور عاصم حمدان كانوا يداومون على ارتياد المسجد ليس للصلاة فقط بل للاستذكار ورؤية بعضهم بعضاً بل وأحياناً مراجعة أساتذتهم .

* * *

تاريخ أم ذكريات :

الصورة هي الحقيقة ، وهي لا تعرف الكذب لأنها تعكس المصوّر إنساناً أو حيواناً ، أو جماداً . فالصورة نعرفنا بذلك الشيء المصور ، وإذا كانت صادقة فإنها ترينا الحقيقة وكأنها ماثلة أمامنا . هذا العمل الذي يقدمه الدكتور عاصم حمدان يقدم صورة تنقل مشاعر القارئ إلى روعة الماضي .

الصورة يمكن أن تكون تاريخاً إذا صوّرت حدثاً أو أحداثاً مع متابعة تسلسل ذلك الحدث ؛ ويمكن أن تكون محاولة لفهم دوافع وفلسفة ذلك الحدث . في كل من الحالتين تصبح الصورة تاريخاً . ولن يغيب عن فطنة القارئ أن الدكتور عاصم حمدان لا يؤرخ للمدينة أو لحارة الأغوات .

الصورة التي يقدمها الكاتب ، أيضاً ، ليست ترجمة لأفراد أو عائلات وقد أحسن صنعاً في تجنب هذا الخضم . ولا شك أن هناك عوائل وأفراد لم يأت على ذكرهم ، ولا أخال هؤلاء يفهمون أن هذا إهمالاً من الكاتب أو إقلالاً من شأنهم ، لأن الكاتب ، وببساطة لم يهدف إلى التاريخ .

الصورة التي أمامنا تعكس ذكريات وهي بذلك يحكمها ويحدد إطارها وتفصيلها ثلاثة عوامل : عامل زمني ، وعامل مكاني ، وعامل ثقافي . العامل الزمني تحدده الفترة التي بدأ الكاتب يفتح عينيه فيها على الحياة ، فانطبعت في ذهنه ذكريات رسخت في أعماقه ، وتأثرت بها شخصيته . أما العامل المكاني فإن إطاره منطقة واحدة هي حارة الأغوات ، بل بعض من الحارة ، العامل الثقافي تحكّمه النشأة الدينية

والخُلُقِيَّة التي نشأ عليها الكاتب وأثرت في نظرته للحياة وللناس .
هذه العوامل الثلاثة تظهر بجلاء في هذه الصور الأدبية مكونة في
مجموعها لوحة فنية اجتماعية ترسم ذكرى حارة الأغوات . الكاتب
ينتقل بك من مخبز « عم حجازي » وفرن « وحيدة » (وحيدة سيدة
هاجرت من صعيد مصر وافتتحت مخبزاً ، وكانت تقف بنفسها تخبز
عيش الحب . وكان لها ولد و بنت . توفيت البنت وهي لما تبلغ الشباب
بعد ، وكان لوفاتها رنة حزن في جميع أنحاء الحارة » . . . إلى صديقه
الذي كان مثلاً للخلق والدين ، الدنيا لديه لا تساوي شروى نقيير ،
يود كثير من الناس لو يكونون أصدقاء له . ثم ينتقل بك إلى المؤذن وهو
يرفع صوته الجميل بالأذان إلى الصلاة والناس في خشوع تعرج
أفكارهم ملكوت السموات والأرض . حقاً الله أكبر ولا إله إلا الله .
جميع الصور في اللوحة يُلْبِسُها الكاتب ثوباً رقيقاً من الدُّعَا
والسكينة ، كأن كل شيء من تلك الحارة وقد تهَدَّبَ شكلاً وضميراً .
ولم لا ؟! إنه بقرب مَثْوَى ذي الخلق العظيم الهادي البشير عليه أفضل
الصلاة وأزكى التسليم .

أرجو أن يجد القارئ مُتعة في استعراض هذه الصور الأدبية ،
فسوف يعيش فيها كما لو كان آتياً أو رائحاً في دروب حارة الأغوات .
وأخيراً أشكر الصديق الزميل الدكتور عاصم حمدان الذي أولاني
ثقته في كتابة هذه المقدمة وأرجو أن أكون قد أدبت جزءاً مما كان
يأمل .

وبالله التوفيق

غازي عبيد مدني

٢٠ / ١١ / ١٤١٢ هـ

تمهيد

لم يكن هذا العمل الأدبي المتواضع والذي استقر بين يدي القارئ على هذا الشكل ، وليد عوامل طارئة دفعت بي إلى كتابته ، ولكنه يبرز بعض تلك الصور التي اخترنتها الذاكرة منذ عهد الطفولة ويفاعة الشباب ، وهو أيضاً تلك الأحاسيس التي تكونت بمرور الأيام عن بلد المصطفى ﷺ وخصوصاً عن ذلك الحمي العتيق الذي كانت تطل عليه منائر المسجد النبوي ، وتشع على أحيائه أنوار الروضة الشريفة ، لطالما تنقلت بين أزقته ومكثت في دوره ، وخالطت القوم من أهله ، في هذا الحمي « الحارة » رأيت خدم المسجد الشريف بهيئاتهم المتميزة يمسكون العصي بيد ويواسون الناس بيد أخرى ، وفيه حملت « الدُّورق » بين يدي ، ينسكب ماءؤه العذب في فمي وتلامس وجهي تلك النسفات الباردة المنبعثة من أرض « السبيل » وجدرانه التي تتراص على جنباتها وبطريقة منظمة تلك الدوارق المصنوعة من تراب الأرض الطيبة .

في الحارة كنت أنصت للأذان يرتفع من المنارة « الرئيسية » ، يأتيني الصوت ندياً ، يلامس وجداناتي ويبعث صوراً من الذكريات عن تلك العصور التي شهدت انطلاقة الإسلام من هذه الأرض ، فلطالما أذَّنَ سيدنا بلال من فوق هذا المسجد الطاهر ، ولطالما رتل

آيات الكتاب الحكيم صحابة رسول الله ﷺ من أمثال عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري وسالم مولى أبي حذيفة - رضوان الله عليهم أجمعين - .

عرفت « الحارة » و « سويقة » و « المناخة » و « باب المصري » وعشتُ رداً من الزمن أستمع إلى صفوة القوم من أصدقاء والذي - أبقاه الله - ، يتحدثون أحاديث فيها الكثير من تلك الحكم والمواعظ التي تربي العقول وفيها أيضاً من الطرائف التي تروح عن النفوس وتدفع عنها الملل ودواعيه ، وإنني في هذه الصور الأدبية التي ضمها هذا الكتاب مدين لوالدي الذي سمعت منه الكثير ولم أحفظ عنه إلا القليل وهذه الصور لا أتطلع من ورائها إلى تدوين التاريخ ورصد الحوادث فكتابة التاريخ بمعناه الاصطلاحي شيء غير هذا الذي يجده القارئ في فصول هذا الكتاب ، وهي ليست بالقصة أو الرواية ، فللكتابة القصصية ملامحها الأساسية التي لا يتوفر بعضها في هذا العمل ، ولكنها تستعير من القصة والرواية ملمحاً هاماً وهو « السرد » ، ومن هنا جاءت محاولة البعض لتصنيفها ضمن الأعمال القصصية .

إنه عمل يقف في منتصف الطريق بين التاريخ والعمل الروائي ، ولم أجد عبارة تكاد تنطبق عليه أكثر دقة من « صورة أدبية » ولهذا فليعذرنى البعض الذي كان يظن أنني أؤرخ للمدينة وتساءل لماذا ذكرت أناساً وأهملت آخرين ، فالناس عندي جميعاً سواء ، وإنني لأحمل بين جنبات نفسي لهذه المدينة وأهلها ما أمر به رسول الله ﷺ في حق جيرانه من صون ورعاية وتقدير ، إنني يا عزيزي - القارئ - كنت مثل من يحمل آلة تصوير فيصور ما تقع عليه عيناه دون أن يعي لماذا

وقف هنا ولم يقف هناك ؟ ولم يدرك بواعث الإغراء التي حملته على التقاط صورة دون أخرى ، وأعترف أنني عجزت عن التقاط صور عديدة ، فقدرة الكلمة على التصوير صعبة جداً وقد تصل أحياناً إلى ما يمكن وصفه بالاستعصاء أو الاستحالة ، وما دمت قد اعترفت بالعجز فأسأل الله أن يثبني إن أصبت ويعفو عني إن أخطأت - بغير قصد وتعمد - .

لم أكن بشخصي الضعيف - من يعزي له هذا العمل المتواضع ، ولكن هناك بعد الله رجال وأخوة كرام يدين لهم صاحب هذه السطور - التي لم يكن وراءها دافع إلا حب الله وحب رسوله ﷺ - فأنا مدين للشيخين الكريمين جميل شيناوي وعبد الله كامل ومعهما معالي الدكتور محمد عبده يباني بمشاعرهم الإيجابية تجاه هذا العمل ، وكانت هذه المشاعر حافزاً قوياً وراء الإقدام على نشره ، كما كان للخطوة الرائدة التي أقدم عليها معالي الأستاذ أحمد زكي يباني ، وهي تفضله - رعاه الله - بإهدائي مجموعة صور نادرة عن حارة الأغوات والتي تمثل نمط البناء والعمارة في عصور الإسلام الأولى ، وهذه المجموعة هي من مقتنيات السيد الفاضل المهندس سامي محسن عنقاوي - الذي ينفق جل وقته في الاهتمام بتراث هذه الأرض الطيبة ، فلأبي هاني وللسيد العنقاوي خالص الشكر سائلاً الله أن يجعل ذلك في موازين حسناتهم ، أما صحيفة المدينة إدارةً وتحريراً فلق كانت الأرض الخصبية التي شهدت ولادة هذا العمل ورعته حتى شب واكتمل . ولا شك أن للمحق الأربعة والعاملين فيه دوراً إيجابياً ومثالياً في الوقت نفسه في التعامل بروح إنسانية رائعة مع كاتب هذه السطور ، وأود أن أشيد بتلك المشاعر الأخوية الفياضة التي غمرني به

زميل الصبا ورفيق الدرب الأستاذ محمد إبراهيم عبد الستار - وفقه الله - .

أما الإخوة الكرام والزملاء الأفاضل الأستاذ محمد صلاح الدين ، والدكاترة : عصام فيلاي ، جميل محمود مغربي ، محمد خضر عريف ، راكان حبيب ، حسن باحفظ الله فقد لمست أن هذا العمل يعينهم كما يعينني شخصياً وتلك سلوكيات نادرة وأخلاق كريمة تعزي الإنسان في زمن أضحت فيه النفس أحوج ما تكون إلى معاضدة الإخوان ومشاركتهم الوجدانية .

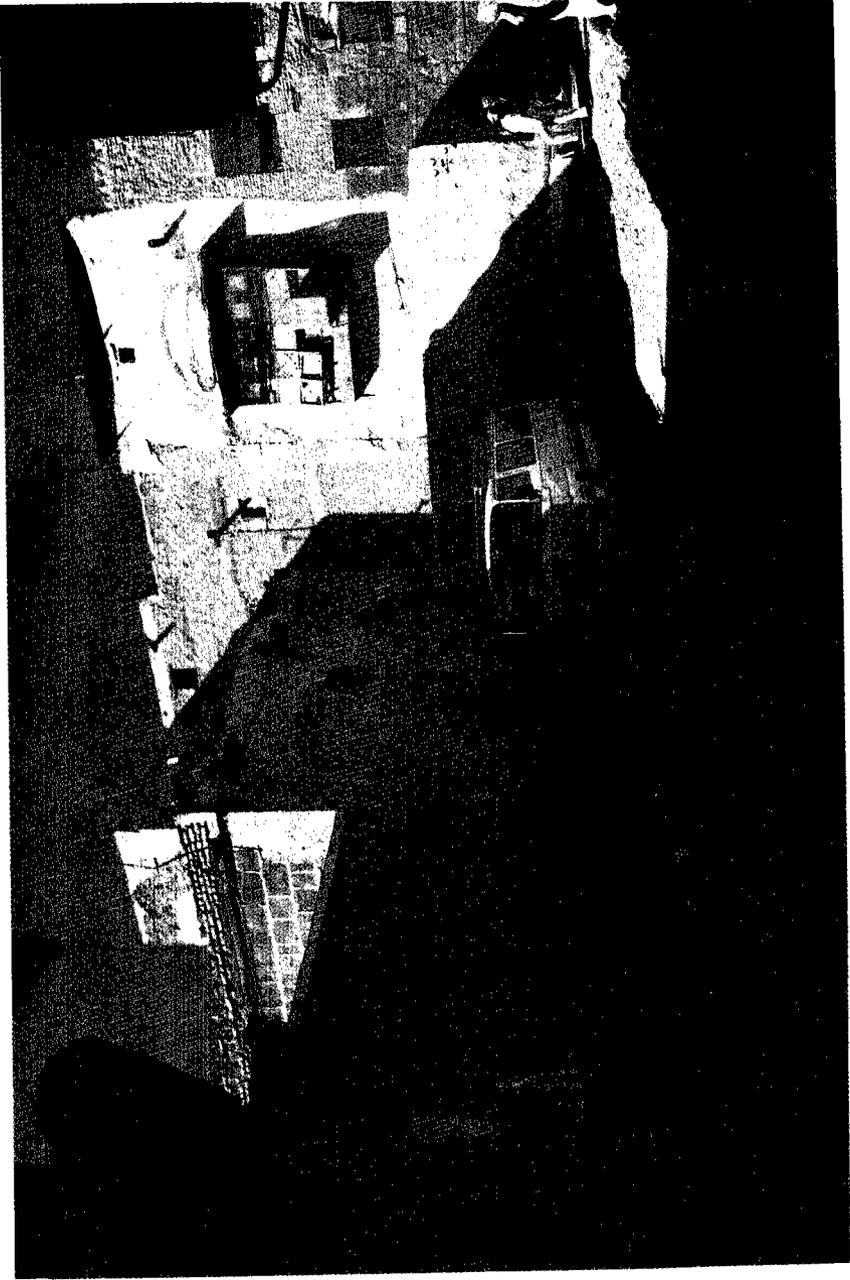
ولا بد لي أن أتوقف عند دور صديقي سعادة الأستاذ الدكتور غازي عبيد مدني الذي كان بتفضله بكتابة مقدمة هذا العمل ، يرعي ذلك الود الذي كان قائماً بين آبائنا في بلد الرسول ﷺ وكم كنت سعيداً أن تكون السطور الأولى في هذا الكتاب هي من نتاج هذا القلم النظيف نظافة صاحبه وطهارة سلوكه وكريم نسبه ، ولن أنسى ثلة كريمة من القراء الذين كان لاستفساراتهم ، وتعليقاتهم وتصحيحاتهم أيضاً دور رئيسي في أن يحتفظ هذا العمل بزخه الخاص المتمثل في تلك الصلة الإيجابية وذلك التعاطف الذي يتحقق بين القارئ والكاتب وذلك من أهم أسس العملية الأدبية التي لن تحقق غرضها من دون مشاركة هذا القارئ مشاركة فعالة في إنتاج العمل الأدبي ، ولعلي أكون قد نسيت في غمرة المشاعل العديدة بعضاً من الأسماء التي لم تأل جهداً في تقييم هذا العمل أو التعبير عن فرحتها به ، فلها من العبد الفقير إلى مولاه كل شكر وتقدير ، وصلى الله على سيد الخلق وصفوة البشر محمد بن عبد الله وآله وصحبه وسلم .

جدة : ١٧ / ١١ / ١٤١٢ هـ .

عاصم حمدان علي



جُزْءٌ مِنْ بَرخةِ الرُّستميةِ حيثُ كان يَقَعُ إلى اليمينِ مَقهى المَعْلَمِ طينُورِ وأمامه المَبْنى المَعْلَقُ
للعِينِ التي كانت تروِدُ الحارةَ بالماءِ ، كما تَظْهَرُ تحت « السَّقِيفَةِ » التي كانت تَصِلُ بين الدُّورِ ،
تَظْهَرُ الحوانيتُ التي كان أهلُ الحارةِ يَؤْمُونُ لِقضاءِ حوائِجِهِم



البناء الحجري الذي تقفُ أمامه « السيارة » هو مبنى مدرسة الرُستمية ويقع بجانبها المكان الذي كان يتخذهُ أتباع الأغوات مَسْكناً لهم ، وكان يتكوّن من غرف صغيرة متجاورة

(١)

تخرج من باب الحرم النبوي المسمى بباب جبريل . فيواجهك هذا الحي ببناؤه المتميز ، بيوت متقاربة وطرق ضيقة ومتعرجة . الشارع الرئيسي الذي يخترق هذا الحي والذي كان يسلكه أهل المدينة حاملين موتاهم إلى روضة البقيع أو مسلمين عليهم في المناسبات . هذا الشلزع يفضي بك إلى رحبة تضم منهلاً للعين ومقهى صغيراً وبناء قديماً يسمى « الرستمية » أما المنهل الذي كان سكان الحي يستخدمون ماءه في الشرب ويتم هذا الاستخدام عبر وسيلة كانت متداولة في المدينة إلى قبل ما يقرب من ربع قرن من الزمن وهي « الزفة » وهي أداة لحمل الماء لتزويد المنازل به ، وكان الشخص الذي يحمل هذا الزفة ويسير بها بين الأزقة والحواري يسمى « السقا » هكذا كانت تنطقه عامة أهل المدينة . وإذا بلغت الحارة وأردت الوصول إلى هذا المنهل فما عليك إلا أن تهبط إليه عن طريق درجه الخاص والمرصوف بالحجر الذي كانت تتميز به معظم شوارع المدينة القديمة وأسواقها « كشارع العينية » ، « وسويقة » ، و« سوق الحدة » وفي الجهة المقابلة « للعين » أو « المنهل » كان يقوم مقهى المعلم « طيفور » الذي يأمه الناس إذا ما فرغوا من صلاة الصبح وأرادوا الانطلاق إلى أعمالهم ، أو إذا ما أخذت الشمس في المغرب وتطلعت الأنفوس إلى الراحة والاستمتاع بتلك النسبات الرطبة التي كانت تنبعث من أرض

الحارة ، فالرحبة تضم العين والمقهى والبناء القديم ويطل عليها منزل شيخ الأغوات يتطوعُ « لِرَشِّهَا » بالماء رجل غريب الأطوار كان يتخذ من الغرف الصغيرة المتناثرة في ذلك البناء القديم مسكناً له ، إنه « عبد الرحيم » لا أعرف له لقباً أو كنية ، يلبس الأسود من الملابس . لا يتحدث إليه أحد من أهل الحارة أو من غير أهلها الذين يأمنونها ولا يتحدث هو إلى أحد ، يقضي سحابة نهاره في الحرم قارئاً للقرآن وإذا ما واثتلك الفرصة ووصلت الحارة في الهزيع الأخير من الليل فستلمحه صاعداً من العين حاملاً الماء على كتفيه ثم ساكباً له في تلك الرحبة كأنه يبيئها بتلك السقيا لبقية القوم من أهل الحي الذين يحبهم ويحبونه ولكنهم يتورعون عن الحديث إليه فغضبه لا يطاق وحياته تنطوي على سر وما أكثر الأسرار في حياة أهل الحارة ، ولم يكن « عبد الرحيم » الذي يتخذ من « الرستمية » والتي اعتقد أنها كانت في حقبة ماضية مدرسة من المدارس التي أقامه الوزير رستم باشا في ما أقام من مؤسسات خيرية في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، لم يكن صاحبنا الوحيد الذي لم تهيء له فرص الحياة أكثر من مساحة محدودة في البناء الذي كاد أن يتهدم لتقدمه بل كان في جواره يسكن العم « حسن » الذي قضى جزءاً من حياته في « مكة المكرمة » وعلى وجه التحديد في حي الشامية حيث كان يعمل في بيت المحجوب ، وكان عمل العم « حسن » هذا ينحصر في إعداد الطعام عندما تكون مناسبة معينة في الحي ، وليس بعيداً عنها كان يوجد « زايد » و« سعد » يحفران القبور في بقيع الغرقد نهاراً ويأويان إلى « الرستمية » ليلاً راضيان بما كتب الله لهما وقانعان بهذه القسمة من الرزق . ثم العم « حسب الله » الذي كان يحترف صنعة « النجارة » وكان إلى جانب قيامه بهذه الصنعة يمثل

الشخصية التي تتمحور عليها لقاءات سكان الرستمية وذلك بحكاياته الطريفة التي كان يرويها لجلسائه ، وبتعليقاته التي لا يسلم أحد منها حتى المعلم « طيفور » نفسه والذي كان يعتبر مسؤولاً عن مبنى « الرستمية » فهو من أتباع الأغوات أو كما يقال من « عتقائهم » اسمه « محمد » و « طيفور » اسم « سيده » من الأغوات ، ولقد امتد العمر بالمعلم « طيفور » إلى ما يزيد عن ثمانين عاماً وكان يبدو للآخرين في تمام الصحة لم ينحن له ظهر أو تتغير له ملامح ، يلبس ذلك الثوب الفضفاض ويشد على وسطه حزاماً ويعتمر « كوفية » بلدي منشأة ، ولا يتعمم ولكنه يلقى « بالسليمي » على كتفه ويبقى طرفه الآخر متديلاً حتى ليكاد يلامس الأرض ، يجلس على كرسي صغير مصنوع من « الشريط » وإذا ما جلس فهو منشغل بشيء واحد وهو شرب « النارجيلة » يهيتها هو بنفسه ، يخرج « دخان الحمي » النوع الممتاز منه « الغيلي » يبله بالماء ثم يفركه بأصابعه حتى يجف ثم يضعه في « الرأس » المصنوع من الفخار ، وزياة في إتقان « التعميرة » فإنه ينفخ الرأس من أسفله حتى تتداخل حبات « الحمي » وتندمج مع بعضها البعض عندئذ تطيب نفسه فيضع على « الحمي » حبات صغيرة من النار ، يخرج « ملقاطه » الصغير ويحرك الجمرات وربما استبدل « ولعة » بأخرى لا تسمع « لنارجيلته » صوتاً ولكن بإمكان أذنك أن تميز صوت أنفاسه وهي تمتح من ذلك الدخان الذي يملأ برائحته ذلك الفضاء المفتوح للمبنى العتيق . . قليلاً ما كان المعلم « طيفور » يشارك في أحاديث الجماعة التي تؤم الرستمية أو تسكن فيها من مثل « الحاج التوم » الذي يجيد شيئاً من كلمات اللغة الفرنسية والتي أفادها في مطلع حياته في بلده « السودان » والنور و « عبد الله » اللذان كانا

يسكنان رباط موعلاً في القدم وهو رباط « المظفر » الذي إذا ما رغب أحد في دخوله فسوف تقابله عن مدخله درجات وعليه أن يسلكها نازلاً وليس صاعداً فتعاقب الزم عليه جعل كل طبقة منه تمثل عصراً محداً . .

المعلم « طيفور » كان يمثل لي ولصديقي الأستاذ « أسامة أحمد السنوسي » سراً من الأسرار ، سمعت عنه أنه كان من « مشاكلة » الحارة مثله في ذلك مثل « أبو عشرين » ومن « عناترتها » كما يقولون وظلت هذه العبارات تشكل هاجساً غريباً في نفسي حتى إذا ما حل العيد واحتفل الناس بقدمه ووضع أهل حي « باب التمار » « المزمار » بالقرب من البقيع وكانت حينئذ منطقة شبه خالية من المباني ، ولا يصبر على السكنى فيها إلا القلة من الناس الذين يتوزعون بين ظلال النخيل ويحتمون من الهاجرة بشجيرات الأثل . ذهبت لأشاهد مع الناس من جميع أنحاء المدينة هذه اللعبة التي يقال إنها أفريقية المنشأ ونقلها المهاجرون إلى أرض الحرمين فيما نقلوا من عادات وتقاليد .

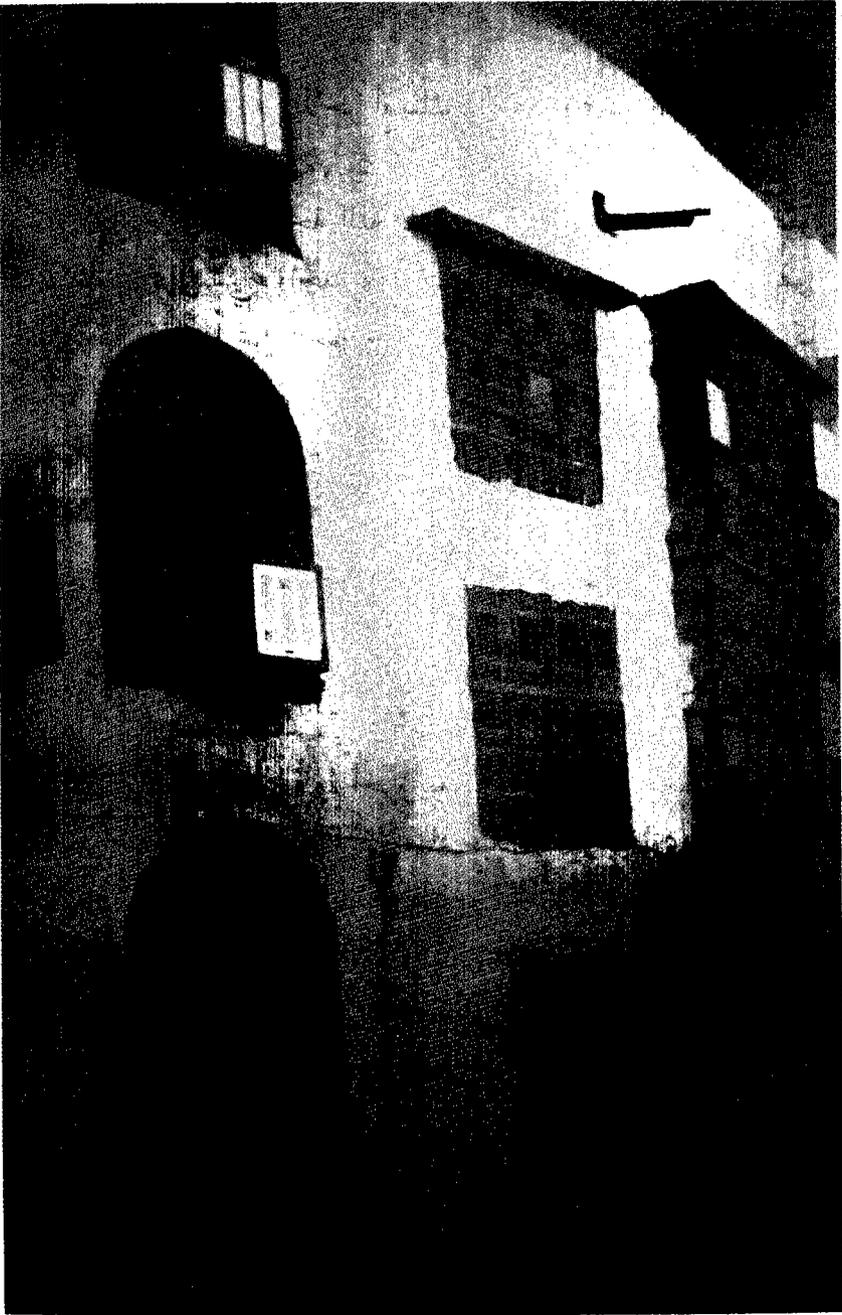
ظلت أراقب لعبة « المزمار » وكانت المساحة المخصصة للعب كبيرة جداً ، كان الكبار والقطع والصغار يشاركون في « لفّ العصا » ويرقصون في حركات غريبة ولكنها طريفة ، شاهدت من الكبار المعلم « حمزة أبو سطوة » الذي كان نازحاً عن المدينة ثم عاد إليها ، والعم « علي رنقا » الذي شارك في بناء محطة سكة الحديد بباب العنبرية ، والذي توفي قريباً عن عمر يناهز التسعين عمماً أو يزيد ، « وعدلى » من مشاكلة الساحة القدامى ، وكان هناك شيخ كبير قدم من جدة لسكنى المدينة هو المعلم « جميل عبده » من أهل حارة اليمن من جدة ، وجه مضىء كان بلاجة الصبح تزيينه لحية بيضاء وملامح تشي

بالصفاء والحب ، هو الآخر أمسك بالعصا ولعب بها ، كان معتماً
بالغباني الأصفر فوق رأسه ، وشاداً الإزار الأخضر في وسطه ، ومع أني
كنت أنقل طرفي في ساحة اللعب من جهة لأخرى ، إلا أن فضولي
كان ينصرف إلى شيء واحد فقط وهو الرغبة في رؤية المعلم « طيفور »
الذي كان غائباً عن الساحة ، وعندما سألت أحدهم عنه ، كان
جوابه مقتضباً ، المعلم « طيفور » لا يلعبُ « المزار » وانفض الجمع
بعد أن تحركت منهم الأجسام وتقابلت العصي من فوق الرؤوس
وحرَّكت الأرجل تراب الأرض الساكن وذراته ، وخلت الساحة إلا من
صدي يردد قول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر

لقد مات « طيفور » ولم أجرؤ يوماً لأسأله لماذا لا يلعب المزار ؟ أو
أستفسر منه عما أفضى به لي الأستاذ عبد الستار بخاري - رحمه الله -
ذات يوم فلقد أوماً بأصبعه تجاه « طيفور » الخارج يومها من باب الرحمة
وقال هذا رجل شجاع فعل كذا وكذا عندما كان شاباً ، وبقي السر
مدفوناً هناك في الحارة وذهب مع الطيبين من القوم الذين لم يبق منهم
أحد ، فلقد ساروا جميعاً إلى رحمة الله ضمتهم الأرض التي أحبوا
واحتواهم التراب الذي عرفوا فيه جباههم قربي لله وزلفى . .





(٢)

كانت الحارة تشتق اسمها من الأغوات الذين كانوا يهبون أنفسهم للخدمة الحرمين الشريفين . ففي المدينة كانوا يقومون بتنظيف المسجد وتهيئته نهائياً وحراسته ليلاً بعد أن تقفل أبوابه ، كان نظامهم الذي أرجح أنه يعود إليالعصر المملوكي نظاماً يقوم على الدقة والإتقان يأتون في موعد محدد وينصرفون بعد أن يكون كل واحد منهم قد أدى ما يوكل إليه من عمل ، كان لا يسمح لهم بالدخول من باب جبريل بل يجب أن يدخلوا من الباب الآخر المجاور له فدخولهم من هذا الباب يمكن الشيخ أو نائبه أو رأس الخيالة من معرفة الوقت الذي دخل فيه الشخص المكلف بأداء الخدمة من بينهم .

مع ارتفاع صوت الأذان الأول من المنارة الرئيسية في المسجد والذي كان يخترق سكون الليل في سماء المدينة كنت تسمع صوت باب يفتح هنا وآخر يوصد هناك ووقع خطوات واثقة تتلمس طريقها وسط الظلام الذي كان يلف منعطفات الحارة ويغطي منازلها بغلالته السوداء ولم يكن ليخفى على أحد عندئذ أن القوم يتجهون إلى المسجد فهم من أول الناس دخولاً له كما أنهم آخرهم خروجاً منه .

كان الغالبية منهم تأتي من بلاد السودان ولكن كتب تاريخ المدينة وخصوصاً ابن فرحون في (نصيحة المشاور وتعزية المجاور) يتحدث عن أجناس مختلفة منهم ولقد حدثني الشيخ مصطفى العلوي أمد الله

في عمره وكان كاتباً لأغوات المدينة لحقبة من الزمن بأنه أدرك اثنين من الأغوات يعودان إلى أصل تركي ويشتركان في اسم واحد هو « سليم » وهما من عتقاء عبد الله باشا ، وقد أهداهما لمسجد المدينة ، وكان من بين أغوات المدينة من اشتهر بالعلم والتفقه في الدين مثل خليل أغا الذي تولى مشيخة أغوات المدينة بعد الستينات الهجرية وقد قرأ القرآن على الشيخ مصطفى الذي أتينا على ذكره قبل قليل كما اشتهروا بعمل الخيرات ومساعدة المحتاجين من الناس فخليل أغا بنى مسجداً في حي قباء لا يزال موجوداً ويعرف باسم مسجد الأغا كما أوقف رباطاً على الفقراء لا يزال يحمل اسمه في حي باب الشامي ، وحي العنبرية مدخل المدينة للقادم من مكة وجده يقال أن اسمه مشتق من «عنبر أغا» كما يوجد مسجد على يسار الداخل من شارع العنبرية ينسب إلى حافظ بهرام أغا .

كان الأغوات الذين أدركتهم تتوزع منازلهم في أماكن مختلفة من الحارة وكان البعض منهم قد نذر نفسه بالكلية لعبادة الله وخدمة مسجد رسوله ﷺ فلا يعرف من المدينة إلا مسجدها وموضع سكنه ، كما أن بعضهم قد بلغ من كرم اليد وساحة النفس شأواً عظيماً كان بينهم شخص اسمه « أحمد » وينطقونه في الحارة « هكذا » « أحمدو » . . ولا أعرف من أين جاء للغة المدنيين هذا الإشباع للحرف الأخير من الاسم .

كان أحمد هذا لا يسمع عن واجب عند أحد من أهل الحارة إلا وأرسل إليه ما يعينه على أداء واجبه وكان إذا طلب من أحد قضاء حاجة ولم يجد ما يكافئه على قضائها له نزع ساعته من يده وأهداها إليه . . هكذا سمعت من سكان الحارة وبالتواتر بعد وفاة هذا الإنسان

وانتقاله إلى رحمة الله .

ولا أنسى موقفاً حدث لي مع واحد منهم اسمه « الضوء » كنت صغيراً أسير في الحارة مع أحد أصدقائي وكان الضوء ينظر إليها من نافذة منزله وما أن سلمنا عليه حتى بادرنا بهديه قذفها علينا من أعلى داره المطلة على واحد من تلك الأزقة الضيقة التي كانت تشتهر بها الحارة أما « جاه الله » الذي شارف عمره على المائة حسب أقوال زملائه في المهنة . . فهو مواظب منذ عرفته على أداء الصلوات في المسجد لا يتخلف عن فرض ولا يسكت لسانه عن ذكر ولا تنقطع يده عن صدقة ، رأيته قبل عام واحد فقط من كتابة هذه السطور وهو يسير بين الدكتين « دكة الأغوات » و « دكة شيخ الحرم » فإذا هو منتصب القامة لا يتوكأ على عصا ولا يتباطأ في مشية ولقد عرفته على هذا النحو منذ ما يقرب من ربع قرن من الزمن (جاه الله) واحد من الأغوات الذين قدموا المدينة فلم يعرفوا منها غير المكان المطهر الذي أتوا من بلادهم بقصد الخدمة فيه .

عندما تميل الشمس إلى المغيب تعمر رحبة الحارة بالناس ومن بينهم فئة الأدلاء العاملين بالحرم فتتهادى إلى أذنك بين الحين والآخر أصوات من ضحكاتهم البريئة وأحاديثهم المسلية ، فيخرج الأغوات من منازلهم التي تحيط بها الحوانيت من كل ناحية يجلس أحدهم واسمه « محمد حسن » كان سمح الوجه ويميل لونه إلى شيء من البياض ، بالقرب من تلك الحوانيت المتواضعة فياض - الأخضر - بكر عبد الحفيظ - فلا يمر طفل إلا ويداعبه ويقدم له شيئاً من الحلوى التي غالباً ما يتهالك الأطفال على الحصول عليها ويميلون بطبيعتهم إلى من يتوددون بها إليهم . .

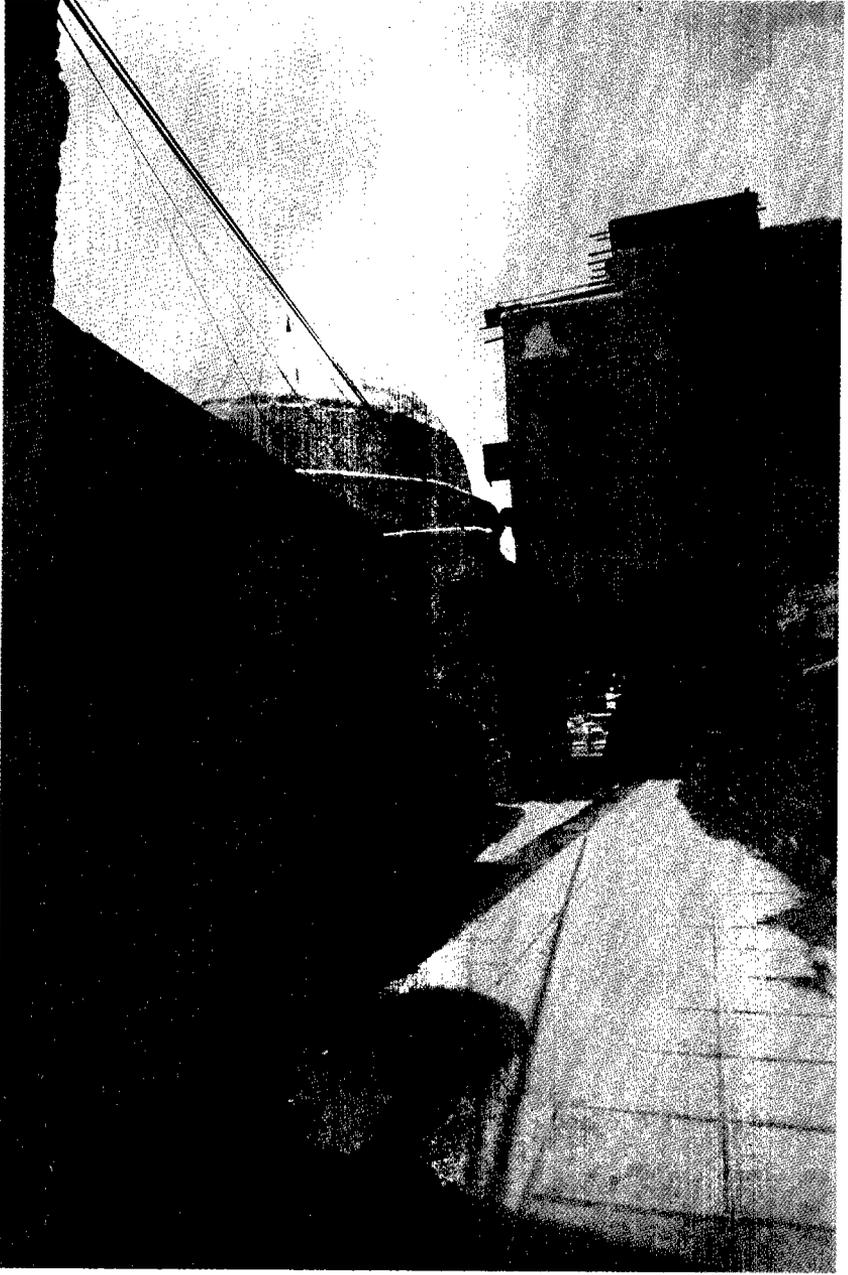
رحم الله القوم فلقد كانت الوجوه منهم مستبشرة والصدور منهم
متسعة والأيدي منهم سخية ورحم زماناً عاشوا فيه كانت القلوب فيه
عامرة بالإيمان والألسنة لا تنقطع عن الذكر والدور لا يتردد فيها غير آي
من الذكر الحكيم أو مقاطع من سيرة المصطفى ﷺ .

(٣)

كانت الحارة تشتمل على معالم خاصة تتميز بها ويسكنها أناس هم في سيرتهم وأخلاقهم جسدوا تلك المثل الحسنة التي عرف بها سكان البلدة الطاهرة من رقة ورافة وسعة أفق .

من المعالم تلك الأماكن التي كانت تزود الحرم الشريف بالماء ويعرف المكان الذي يحتفظ فيه بالماء بارداً ونقياً باسم (السَّيْل) ومنذ أن تشق طريقك صاعداً إلى الحارة سوف تجد هذه الأماكن متوزعة بين أزقة الحارة ومنعطفاتها . فهنا سبيل « ماله » وهناك سبيل (الأفندي) وفي الرحبة الأقرب إلى البقيع يوجد سبيل (المنادي) و (الشريف حسن) وسوف تلمح شباباً خارجين منها يحملون (الدوارق) المصنوعة من الفخار بين أيديهم ومسرعين بها في نشوة وحماس إلى الصناديق المخصصة لها بين أروقة المسجد ، وكانت قدرات هؤلاء الشباب في حمل هذه الدوارق بينها اختلاف واضح ، وكان شهر رمضان المبارك كفيلاً بالتمييز بين هذه القدرات فهو الشهر الذي يزداد فيه الطلب على الماء في الحرم ويستتبع ذلك الاستعانة بعدد كبير من أبناء هذه الحرفة .

أعود إلى الوراء قليلاً بذاكرتي ، وبالتحديد في بداية الثمانينات الهجرية ، كنت طالباً في مدرسة دار العلوم الشرعية ، وكان نظام المدرسة يسمح بخروج الطلاب من المدرسة أثناء ما كان يسمى



الطريق إلى حمام طيبة - أحد معالم حارة الأغوات - ويبدو المنفذ الذي يصل الحارة بشارع باب العوالي

بـ (الفسحة الكبيرة) وهو قريب إلى النظام الذي عادت إلى الأخذ به مدارسنا في الوقت الحاضر ، فطلب مني ذات يوم زميل اسمه (بشير العقيلي) مع زميل آخر مساعدته في حمل الدوارق من (السبيل) إلى الحرم ، ولما كنت جاهلاً بأصول المهنة فلقد سقطت على الأرض ولم تقو يداي على حمل (شكّة الدوارق) وكانت هذه البداية في تاريخ معرفتي بهذه الأماكن ، ثم قادني الأقدار إلى الحارة في المرحلة التالية من حياتي ، فإذا أنا أقضي فيها من الوقت بحكم القرب من الحرم ودراستي فيه أكثر من الوقت الذي أقضيه في حارقي التي نشأت فيها وهي (حارة العنبرية) وإذا أنا أعرف في الحارة من الناس الطيبين من كان لهم دور كبير - بعد الله - في توجيه حياتي وفي تشكيل المناحي الفكرية لدي ، من هؤلاء صديقي (أحمد الزين) الذي كان فيه من طيبة القلب وسماحة الخلق وكرم النفس ما حملني على أن أؤمّ دَارَهُ كل صباح ومساء ، يلقي علي من شعره الذي يمدح فيه الرسول ﷺ ويتشوق به إلى ديار الهدى والإيمان ، وإن أبيات هذا الشعر وقوافيه لتذكرك بالرواد الأوائل الذين ارتبط اسمهم بهذا الفن الشعري مثل الصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه أو المتأخرين الذين أثروه بإبداعاتهم المشهورة مثل البرعي والبوصيري - رحمهما الله . .

وفي وقت لاحق تعرفت على شخصية كريمة كانت تسكن الحارة وبالقرب من منطقة (ذروان) وهي بئر أثرية مشهورة ، ذلكم هو الأستاذ الفاضل والمربي الكريم محمد حميدة ، الذي عرفته بداية فيما كان يكتبه على صفحات جريدة المدينة المنورة في الحقبة التي كانت تصدر فيها في المدينة المنورة - ولكن في بداية التسعينات الهجرية جلست إلى الأستاذ حميدة واستمعت إليه محدثاً يشدني ما يتسم به

حديثه من صدق وينتزع إعجابي تلك الإحاطة الشاملة لديه بالتيارات الفكرية في العالم الإسلامي ، كان يحدثني حديث العارف عن الفكر عند محمد الغزالي السقا وأحمد جمال وأحمد عبدالغفور عطار ، وينزع في أحياناً إلى دنيا الشعر ، فإذا هو قارىء متذوق وناقد خبير لما يبده شعراء الرعيل الأول أمثال شحاته والعواد وضياء الدين رجب ويضع بين يدي - وبكل تواضع - خلاصة تجربته في الحياة العلمية والتربوية . لذا فأنا مدين له بالكثير فلکم قضيت من الوقت المفيد مستعماً إليه تارة ومناقشاً له أخرى وبالقرب من مكتبته التي تحتوي على أمهات المصادر والمراجع في الفكر والتراث ، ولكم زودني بما أحتاج إليه من كتب ، هو والمرحوم الشيخ - جعفر فقيه - يمثلان في أخلاقهما ويجسدان في سلوكهما ذلك السلف الصالح من علمائنا الذين كانوا يحبون العلم إلى الناشئة ويرغبونهم بما وهبهم الله من حكمة ومعرفة في الدرس والتحصيل .

وكان يسكن الحارة أيضاً - شيخ فاضل تدنيك منه ملامح إيمانية مضيئة ويستهويك ذلك الهدوء والسكينة اللذان تنطبعُ بهما ملامح شخصيته . كان يخرج من داره الملاصقة لمنهل العين في الحارة ، فإذا المقام يستقر به في ذلك المكان المعروف - بدكة - شيخ الحرم ، والواقعة على يسار الخارج من باب جبريل . ويجلس إلى جانب صديقه الشيخ الجليل - جميل شيناوي - أمد الله في عمره - ويصلي إلى جانبها زمرة من أهل الفضل أحد حفظة كتاب الله المعروفين في البلدة الطاهرة الشيخ حسن بخاري - رحمه الله - وكان بين الشيخين عبد الجواد والبخاري من المحبة في الله الشيء الكثير ، وكانت من دلائل تلك المحبة وصدقها انتقالهما إلى رحمة الله في يوم واحد .

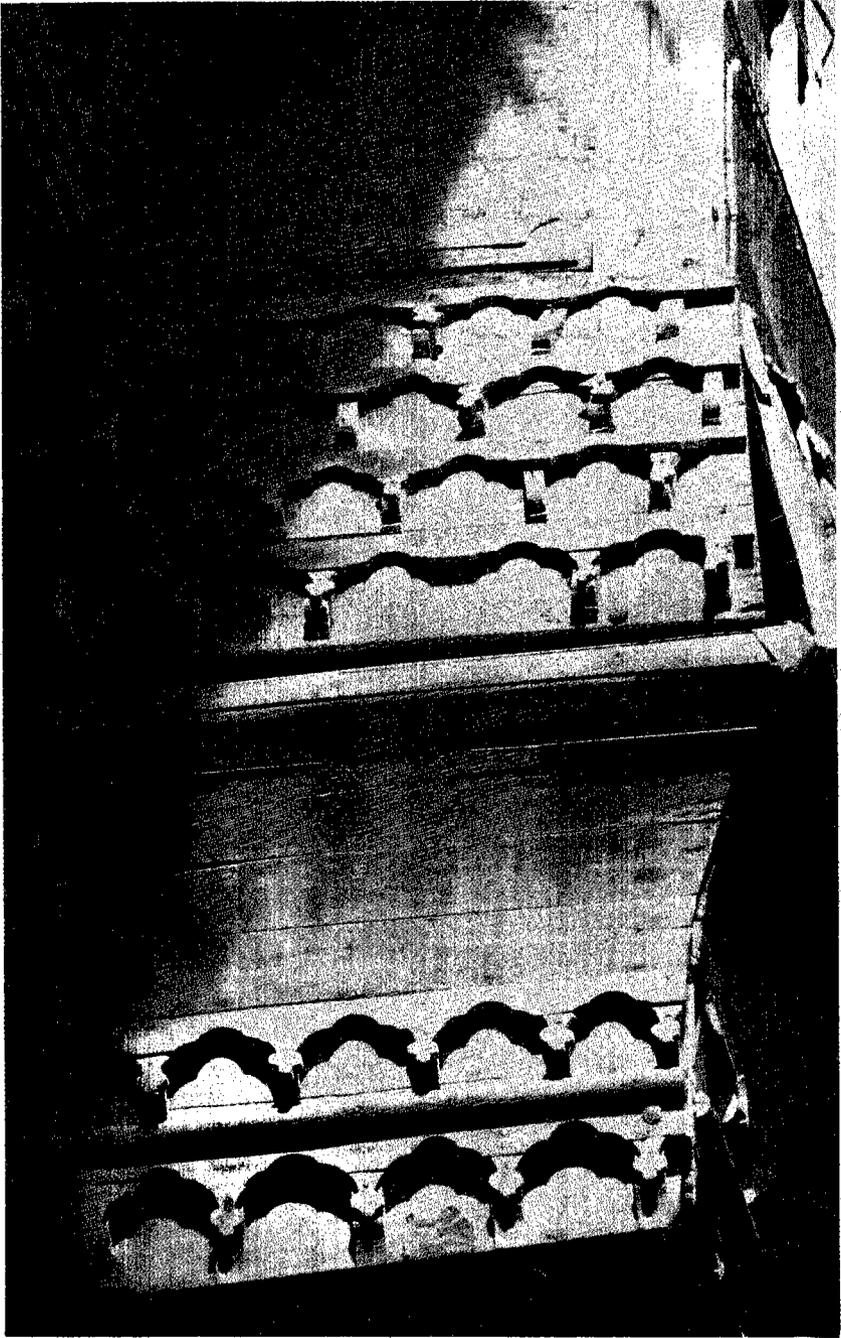
ولقد ترك (الشيخ أحمد عبد الجواد) الذي كانت تربطه علاقة وثيقة مع شيخ الأزهر السابق الدكتور عبد الحلیم محمود - رحمه الله - العالم الإسلامي (الدعاء المستجاب من الأحاديث والكتاب) وسلسلة العالم الإسلامي (الدعاء المستجاب من الأحاديث والكتاب) وسلسلة كتب في التعريف بدين الإسلام باللغتين العربية والإنجليزية - وكتاب في علم الموارث وأصوله ، ولعل تأليفه لهذا الكتاب الأخير نتيجة طبيعية لتبحره في علوم الرياضيات التي كان يساعدنا في حل بعض مسائلها أثناء دراستنا بالمرحلتين الإعدادية والثانوية .

وليس بعيداً عن الشيخ عبد الجواد كانت توجد دار الشيخ عبد الكريم السناري والد صديقنا الأستاذ عبد الرحمن عبد الكريم - المستشار بوزارة البترول والثروة المعدنية - وكان الشيخ عبد الكريم إذا ما صلى صلاة العصر تهباً لاستقبال زواره من أهل العلم والفضل ، وكان من بين الذين يأمون داره العلامة حسن مشاط - رحمه الله - وذلك عند حلوله في البلدة الطاهرة زائراً .

وفي الناحية الأخرى من الحارة والتي تسامت الشارع العام الذي كان يحجز الحارة عن البقيع كان يسكن الشيخ حسن فلاته - رحمه الله - والد الصديق الدكتور عمر فلاته الأستاذ - بكلية التربية بالمدينة المنورة - وكان هذا الشيخ ذا سمت حين وأخلاق كريمة فأنت لا تكاد تحس به وهو خارج من داره لأداء الصلوات في الحرم النبوي الشريف ، وكان - رحمه الله - خفيض الصوت مطمئن النفس ساكن الجوارح .

ذات يوم كنت أجلس في رحبة الحارة فإذا رجل يضع نظارة على عينيه ويلبس ما كان يعرف عند أهل المدينة المنورة (بالسديرية)

يبادئني بالتحية ويسألني عن (حارتي) لأنني أبـدو غريباً عن الحارة
وأهلها ، ولما أجبته ابتسم وقال لي أنا أعرف جدك لأبيك وسرد علي شيئاً
من صفاته وسماته وظل جدي - رحمه الله - يعيش في نفسي بذلك
الوصف الذي مسعته منه . لقد رأيت جدي بعيني المرحوم - أحمد
هندية - الذي عاش في الحارة وحيداً ومات وحيداً . . .





(٤)

أشياء عديدة ومتباينة كانت تجذب الناس إلى تلك الحارة أو تدفعهم لزيارتها بين الحين والآخر . من بين تلك الأشياء « مخبز المعلم حجازي » رجل تقدمت به السن ولكنه لا يزال حريصاً على الكسب من صنع يديه . . . يلبس ثوباً رقيقاً من الشاش ويضع نظارة على عينيه مشدودة إلى أذنيه بخيط مفتول يسمى في لغة سكان المدينة بالدبارة ، يأوي إذا ما جن الليل إلى غرفة صغيرة في الدور السفلى من أحد بيوت الحارة ، تلك الغرفة هي عالمه الوحيد الذي عاش فيه الحقبة الأخيرة من حياته حتى انتقاله إلى رحمة الله ويستيقظ مع «الأذان الأول» فالحرم على مقربة منه وبعد أن يصلي مع الجماعة يذهب إلى « الفرن » ويشرف بنفسه على « تقريص » الخبز المصنوع من القمح والذي يتدافع الناس للحصول عليه كان « محمد حجازي » - رحمه الله - حاد الطبع لا يطيق الثروة وكثرة الكلام ، أما حديثه فهو مثل حد السيف القاطع ، يأبى أن يقول ما لا يؤمن به . أو يجامل فيما يعتقد أنه يتعارض مع أخلاقه ، هو في ذلك مثل كل رجال الجيل السابق ، لم يتلقوا التعليم انتظاماً ، ويتدرجوا في تلقي فنون المعرفة . ولكن الفطرة كانت تضبط كل سلوكياتهم وتوجه نشاطاتهم في هذه الحياة توجيهاً سليماً وصادقاً في الوقت نفسه .

* * *

« حجازي » لم يكن من أهل الحارة ولكنه انتقل إليها من حارته الأولى « العنبرية » التي كان يعمل فيها نفس الحرفة التي امتهنتها بعد انتقاله إلى حارة الأغوات ، ولقد كان متقناً لأصول حرفته إتقاناً كاملاً لا يخرج بذلك عن الإطار الذي كانت تدور فيه جميع الحرف الأخرى ، وهو إطار محكوم بأخلاق المهنة والمحافظة على سمعة العمل وصاحبه ومن هنا تكون الجودة ويتحقق الإتقان .

المخابز في المدينة المنورة والتي كانت جميعها تشترك في سمة واحدة وهي الاعتماد على النار الطبيعية والتي يشكّل الحطب أساس وقودها . هذه المخابز كان يتركز وجودها في زقاق « الطيار » ومن أشهرها « العمرى » و« أبو عنق » في الصباح يخصص بعضها لصنع « الشريك » أو « السّحيرة » كما يسميه جيران بيت الله من أهل مكة - شرفها الله - وفي الظهر « الخبز » وأنواعه كثيرة أجودها المصنوع من حب القمح ، وفي المساء صنع أنواع أخرى من « الشريك » أشهرها ذلك المستطيل والمدهون بالسمن والذي يستخدم في حفلات الأعراس .

وفي الضحى حيث تعمر مقاهي المناخة بروادها وتمتلئ المراكيز بالزوار من كل مكان . وتفتح حوانيت بائعي اللبن أبوابها لشرب الحليب أو تناول اللبن والزبدة . في ذلك الوقت من النهار ترى العاملين لدى تلك المخابز يحملون فوق رؤوسهم طاولات « الشريك » والخبز وهم يعبرون شارع المناخة المظلل بالأشجار إلى سوق العياشة واحد من تلك الأسواق التي تتجاور مع بعضها البعض وتلبي حاجة من يؤمها من الناس ، ولكن المنظر الوحيد الذي لا أنساه واحتفظت به ذاكرتي لمدة تقارب ربع قرن من الزمن ، هو الطريقة التي كان يسير

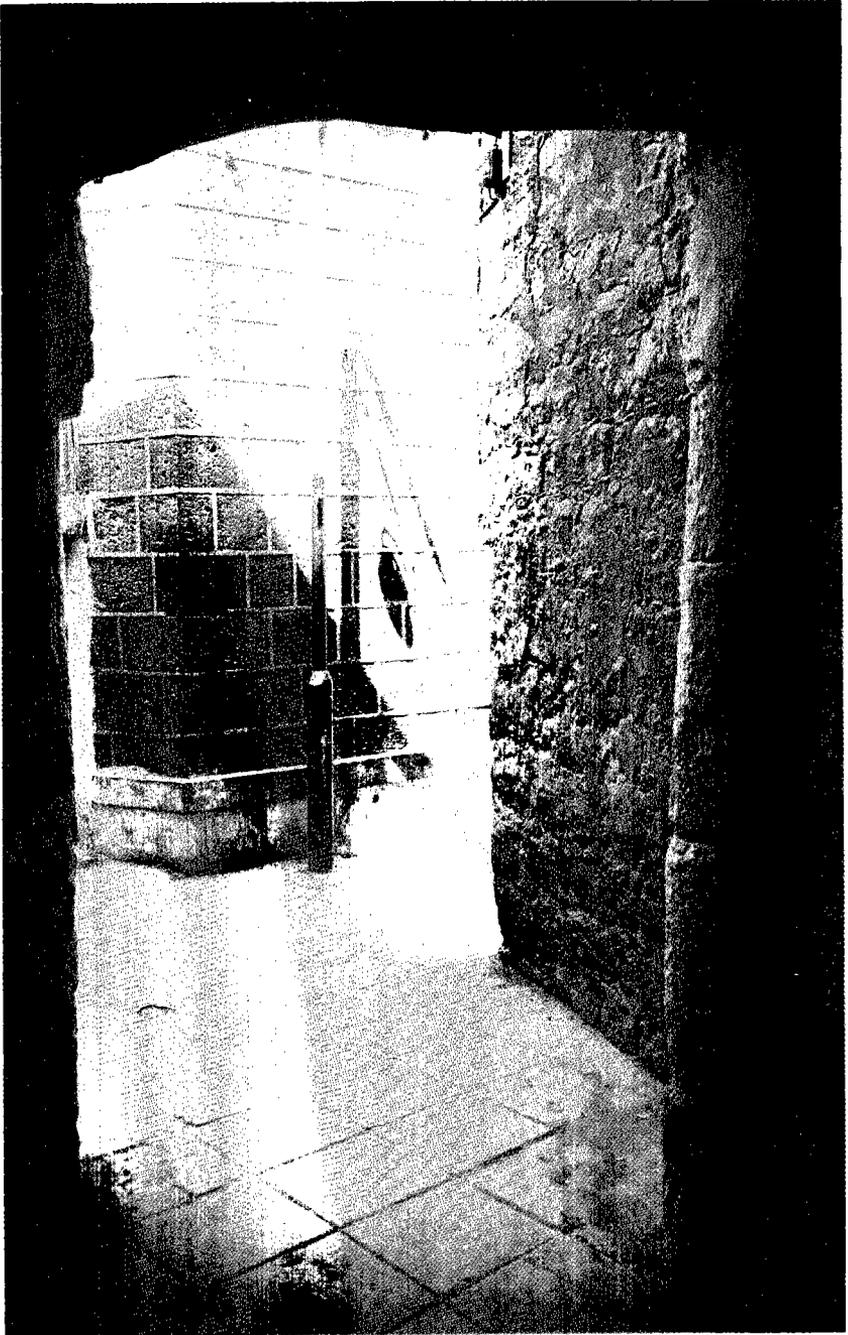
بها بعضهم وهم يحملون ذلك الخبز ، فهم يسرعون في مشيتهم وقد أسبلوا أيديهم إلى الأسفل وكأنهم لا يحتاجون إلى تلك الأيدي للقبض على « طاولة » الخبز . لعله شيء من الخبرة والمران اكتسبوه من طول العمل في الصنعة أو الرغبة في إبراز الموهبة أو هو مزيج من الإثنين معاً وإذا وصلوا إلى السوق ودفعوا به إلى الباعة سمعت الأصوات ترتفع من خلف « اشرة » الحوانيت تكاد تختلط مع بعضها ولكن في غير نشاز أو تنافر .

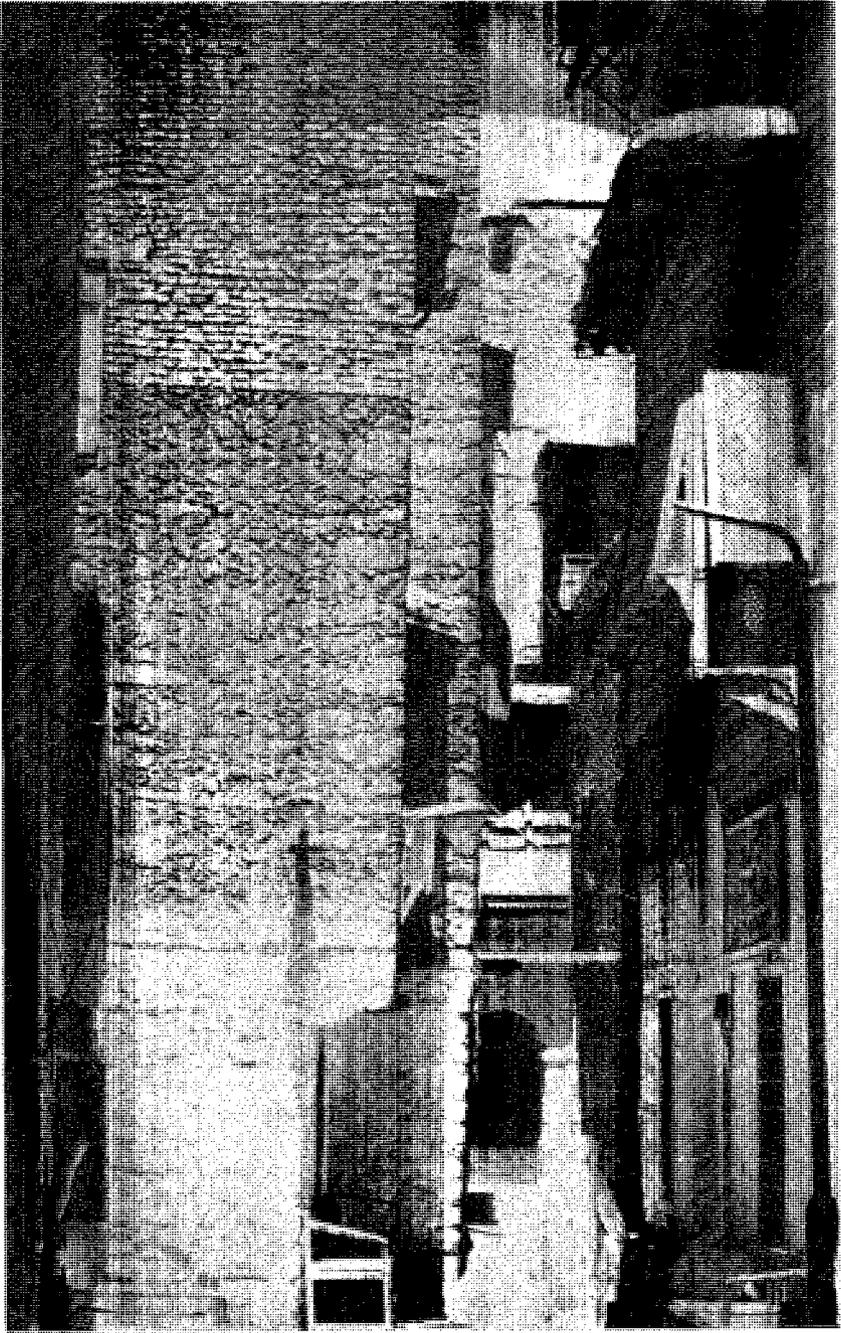
في زقاق « الطَّوَال » الذي كان يمكنك أن تلج إليه من طريقين أحدهما وهو سوق « القفَّاصة » والذي تنتشر على جوانبه أيضاً حوانيت تخصص بعضها في صنع الأثاث الذي كان يستعمله أهل المدينة في منازلهم . وتخصص البعض الآخر في إصلاح المصابيح التي عرفت في حقبة ماضية باسم « الأثاريك » كما يمكنك بلوغه من طريق آخر وهو شارع الساحة المتميز بدوره المبنية من الحجر والمزدانة واجهاتها « بالمشربيات » والتي تبرز من خلال تلك اللمسات الفنية الرائعة الموجودة فيها ذلك الحس الحضاري الذي عرفت به المدينة المنورة على امتداد العصور الإسلامية . في هذا الزقاق كان يقع « مخبز البرى » لصنع الشريك وعلى وجه التحديد كان يقوم هذا المخبز في صدر الرحبة التي كان يقع فيها « دار النابغة الصغرى » حيث مدفن والد رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد المطلب كما أثبت ذلك بعض أصحاب السير ، ولا أعلم إذا ما كانت تلك المنطقة جزءاً من دور بني النجار الذي كانت فيهم خوولة والد النبي ﷺ الذي توفي في المدينة بعد رحلته إلى الشام وتم دفنه في ذلك الموقع .

كان من بين جميع مخابز المدينة مخبز واحد ينسب إلى اسم « امرأة »

وهو مخبز « وحيدة » وكان هذا المخبز يقوم في حي « الشونة » المؤدية طرقة إلى الحرم النبوي الشريف وشارع « سوقة » المشهور وبالتحديد خلف الدار الكبيرة المتميزة ببناؤها من الحجر المنحوت والعائدة لآل « ظافر » والتي كان يسكنها ال « الخريجي » ثم سكنها من بعدهم آل « ساعد » ولا أعلم هل كان مخبز « وحيدة » يصنع الخبز أم الناس كانوا يذهبون إليه بالخبز لتطيبه بعد أن يصنعوه في بيوتهم كما كانت هي العادة عند أهل المدينة في تلك الحقبة التي أصبحت جزءاً من الماضي الذي يحتاج إلى أكثر من هذا السرد العابر الذي اعتمد في تدوينه على الذاكرة، ولربما اعتور هذا السرد شيء من النقص في فصوله أو بعض الخطأ ، وهي فرصة مناسبة أدعو فيها الزملاء الكرام ممن عايش تلك الفترة إلى تذكيري بما وقع فيه النسيان وتصحيح ما أخطأت القول فيه ، وهذا هو المنهج الذي أوّمن به في هذه المحاولة الكتابية التي تستهدف مقارنة بعض النواحي الاجتماعية ووصف وقائعها حيث لا تتوفر على وثائق تساعدنا في معرفة دقيقة بذلك الواقع الاجتماعي أو وصفه أو الحديث عن رجاله . إلا أن ذلك لا يمنعنا من ضبط هذا السرد الكتابي بشيء هام وأساسي وهو التقيد بما يرضي الله ورسوله ﷺ نائين عن التعرض للناس بما يسوء وخصوصاً أولئك الذين انتقلوا إلى جوار رحمتهم وأصبحوا بين يدي رحمة ، فالشريعة الإسلامية الغراء أمرتنا بذكر محاسن موتانا وأن ندعو لمسيئهم بالغفران ، ومنتحفظين كذلك على الكتابة في قضية أنساب الأسر دون أن نملك الدليل الثابت أو الرواية المتواترة التي تعيننا في هذا الشأن كما أننا ننأى عن التجديف والحديث في عقائد الناس وما يتصل بها من توجيهات فكرية فتلك أمور مردها إلى الله وحده . . والخوض فيها سواء كان

الغرض منه التسلية أو النكاية والتشهير أمور تنهى عنها مقاصد الشرع الحنيف ، ولا تتواءم مطلقاً مع أخلاقيات العلم ومناهج البحث ، وما أجدرنا بتذكر شيء واحد وهو أننا كما كتبنا عمن سبق فسوف يكتب عنا من لحق . فلنتق الله فيما نكتب وإذا كان هدفنا رضاه وحده فهو الذي سوف يثبينا على ذلك كله كما أن الناس سوف تحمد ما نقول وتلك شهادة التاريخ علينا وكفى بها من شهادة .





(٥)

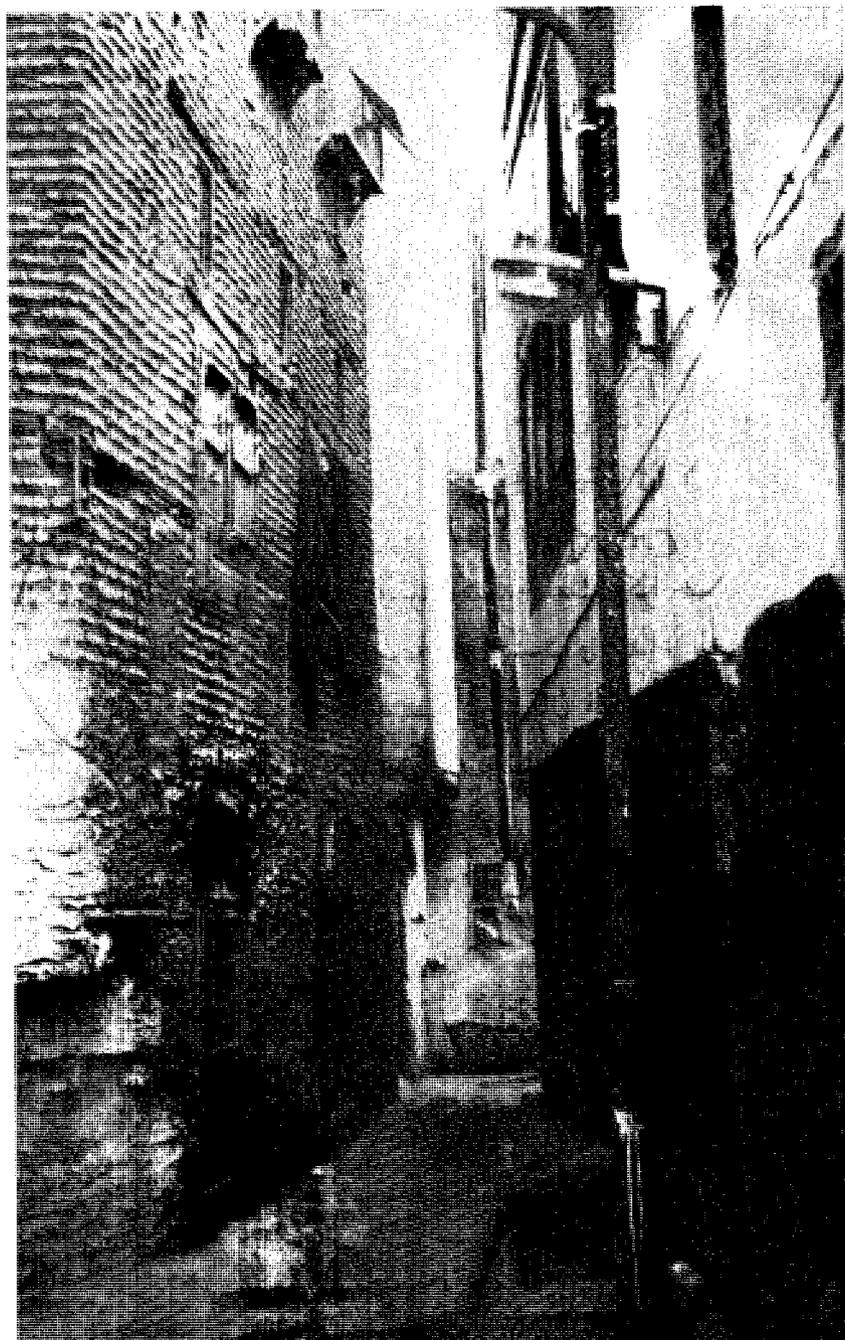
عبد الله سلامة الجهني :

لا أستطيع الهروب منك وأنا أكتب عن الحارة فصورتك تلاحقني
وصوتك يملأ أسماعي حيث كنت أجلس إليك في « فرش الحجر » المكان
الذي كان إذا ما جن الليل يستقبل أقواماً تعلقت منهم النفوس بحب الله
وتوجهت منهم الجوارح لاستدرا رحمة وطلب رضوانه ، يمسك أحدهم
بكتاب الله بين يديه فلا يتركه حتى يسمع صوت المؤذن في منارة المسجد
ويجلس الآخر للذكر فلا تسمع إلا تمتمة شفته ، هم القوم انشغلوا بحبه عما
سواه فأنساهم هموم هذه الدنيا الفانية لأنه تكفل لهم بشؤونها فلا القلق يعرف
طريقه إلى نفوسهم ولا الخوف من فقدانها يشكلها جسماً لديهم .

لماذا لا أكتب عن صفاتك السامية للناس أيها الرجل وقد أصبحت بين
يدي رحمة الله ، وما زلنا نحن في هذه الدار سائلين الله - عز وجل - حسن
المخرج منها ؟ كيف لا أذكر اليوم الذي جلست فيه إليك لأول مرة وكنت
- من قبل - أتهيب لقاءك ، كنت بصحبة أستاذ كريم فجننا إليك وأنت
جالس في حرم رسول الله ﷺ وخلف ما يسمى بـ « المكبرية » حيث يرتفع
صوت الإيمان ، فإذا الذي أنا برفقته يطلب منك أن تعينه على أمر من أموره
الخاصة ، لقد أجلت بصرك فيما حولك ثم تطلعت إلى الأفق البعيد متجاوزاً
حدود هذا العالم ومتخطياً حواجزه ، وجاء الرد منك بكلمات لا زلت أحفظها
وها أنا اليوم أروها ، قلت له عجباً إنني هارب من هذه الدنيا فكيف تأتي لها

أن تلاحقني في هذا المكان الطاهر ، وساد صمت عجيب لا نسمع في أجوائه سوى رجح أصوات قوم يقرأون وآخرون يسلمون ثم رأيتك بعد هذا الموقف الذي كان بداية محبة دامت لأكثر من عقدين من الزمن . . رأيتك بعدها تدخل المكتبات المجاورة للمقام الطاهر ومن بينها مكتبة « عارف حكمت » فإذا أنت منكب على القراءة ، وكثيراً ما رجعت إلى الكتب المحفوظة في تلك المكتبات فاعلم من إشارات بين سطورها أن يدريك لامست صفحاتها ونظرك جال بين كلماتها ، كنت عاشقاً للكتاب كأنك ولدت لتقرأ ، وكتبت وألّفت ولكن بعض ما كتبت ظل بعيداً عن متناول الأيدي فلا المكان كان يستقر بك ولا الشهرة كانت تستهويك فأنت طراز فريد من الرجال يحبك الذين عرفوك ، ويعرف منزلتك الذين كانوا يرون حياتك تنزع نحو المثالية ولا تتعايش مع الواقع ، ولكنني أحببت حديثك فإذا أنا أجلس إليك في المدينة في « فرش الحجر » بالقرب من الحارة ، ثم تجمعني بك الأقدار في « مكة » فإذا حصوات الحرم تجمعنا وبيت الله يوحد شملنا ، وأنت ترتدي الإحرام نازح من الدنيا وأنت بين أهلها وزاهد في متاعها بينما كنا نلهث خلف سرايها ، تقول لي : زهدت في صحبة الناس واستعصت عنها بصحبة الله ، أحفظ عنك عظات من القول ، كأن الناس لم يقولوها من قبل لأنك تقولها قول المؤمن بها والمعتقد في صحتها ، ألم تقل يوماً المسلمون أحوج ما يكون إلى أن يحسنوا الظن ببعضهم البعض ، ثم تعقب قائلاً دعونا نحاسب الناس على أفعالهم قبل أن نحاسبهم على أقوالهم . وخاطبتنا يوماً قائلاً - وكان ذلك قبل

وفاتك بأسابيع في جدة : إن الدعوة إلى مكارم الأخلاق من أسس هذا الدين العظيم ، لقد كنت متعلقاً بتلك المكارم فلقد سألتك - يوماً - لماذا يبدو هذا الهزال عليك فأجبتني يجب أن نجوع كثيراً لنعرف كيف يجوع الفقراء من الناس ، ولقد كنت تكتفي بالقليل من الطعام وتنزع إلى البسيط من الثياب ، وتنام اليسير من الليل ، فلکم كنت ألمحك في « الفرش » متهجداً ، وفي روضة المصطفى ﷺ - قارئاً - وحول البيت طائفاً ، فإذا تحدثت عن الدنيا استقر حيثك في الأعماق لأنك زهدت في الدنيا عن قناعة ، ولم يشغلك ما فيها من بهرج أو يستهويك ما يجاوزه الآخرون من متاع ، ولقد تركت خلفك ذكراً حسناً ولمحات إنسانية تجسدت في ذلك التراث الذي كتبت والإبداع الذي دونت اوالذي لو لم يكن فيه إلا « تفسير القرآن الكريم » و« أفكار بيضاء » . . لكفالك الله به رضا في هذه الدنيا وقربى في الدار الآخرة .





(٦)

لن يكون هناك أجمل من اليوم الذي يطلع عليك فجره وأنت تنقل خطواتك في « أزقة » الحارة التي يرجع الناس تاريخها إلى عصور الإسلام الأولى ، ولكم دلفت إليها في الهزيع الأخير من الليل ، فإذا الهدوء يشمل كل شيء والسكينة تعمر كل ناحية منها وكأنني بأجوائها تتنفس ذلك الرضى وتلك الطمأنينة التي انطبعت بها نفوس القوم من سكانها ، وكل ما يمكنك أن تسمعه وسط تلك الأجواء صوت خرير الماء في « خرزتها أو عينها » .

أناس يتوضؤون ثم ينصرفون إلى « فرش الحجر » أو رجة باب السلام ينتظرون اللحظة التي تفتح فيها أبواب الحرم ويؤذن لهم بالدخول ، فحملهم الشوق العارم على أن يسرعوا في خطواتهم ، وما أن يستقر بهم المقام في الروضة حتى تراهم والمصاحف بين أيديهم ، وذكر الله على ألسنتهم ، ودمع سخي ينحدر من مآقيهم ، وهل في الدنيا وجد كذاك الذي ينسكب فيالنفوس فينتقل بها إلى عوالم أكثر إشراقاً وأشد إيناساً وأجمل بهاء ، إنه الوجد الذي يقذفه الله في قلوب عباده المؤمنين فتغسل به من أدران الحياة التي كثيراً ما تحول ظلمتها بين العبد في هذه الدنيا وبين تلك العوالم التي لو عرف الناس ما فيها من نعيم لتقاتلوا عليه وتنافسوا حوله كما يتقاتلون ويتنافسون حول متطلبات وضرورات الجسد الفاني .

يرتفع أذان الفجر من فوق منائر المسجد ، ولم يكن هناك صوت يبعث على الخشية ويحمل عليا لتذكر والعبرة كصوت الأستاذ « عبد الستار بخاري » - رحمه الله - يعرف الناس حفظه لكتاب الله ، وتمكنه من قواعد التجويد ، ومعرفته الدقيقة بمراتب الصوت ومقاماته ، كان « الرئيس عبدالستار » - وهكذا كان يعرف في المدينة بين محبيه وطلابه - صاحب قاعدة في الأذان ، وكان زميله الشيخ حسين بخاري - رحمه الله - أندى صوتاً ، وكان من قوة الصوت التي منحه الله إياها أنه في بعض مناسبات عقود النكاح حيث كانت تلقى قصائد الترحيب ، لا يحتاج في إنشاده للشعر إلى مكبر للصوت ، ولقد سمعته وأنا في مطلع العمر فأذهلني ما كان يتمتع به صوته من قوة ، ولم أسمع أحد بعده وبعد الأستاذ « عبد الستار - رحمهما الله من يؤثر في نفوس الناس ذلك التأثير الذي كان يجده كل من استمع إليهما » .

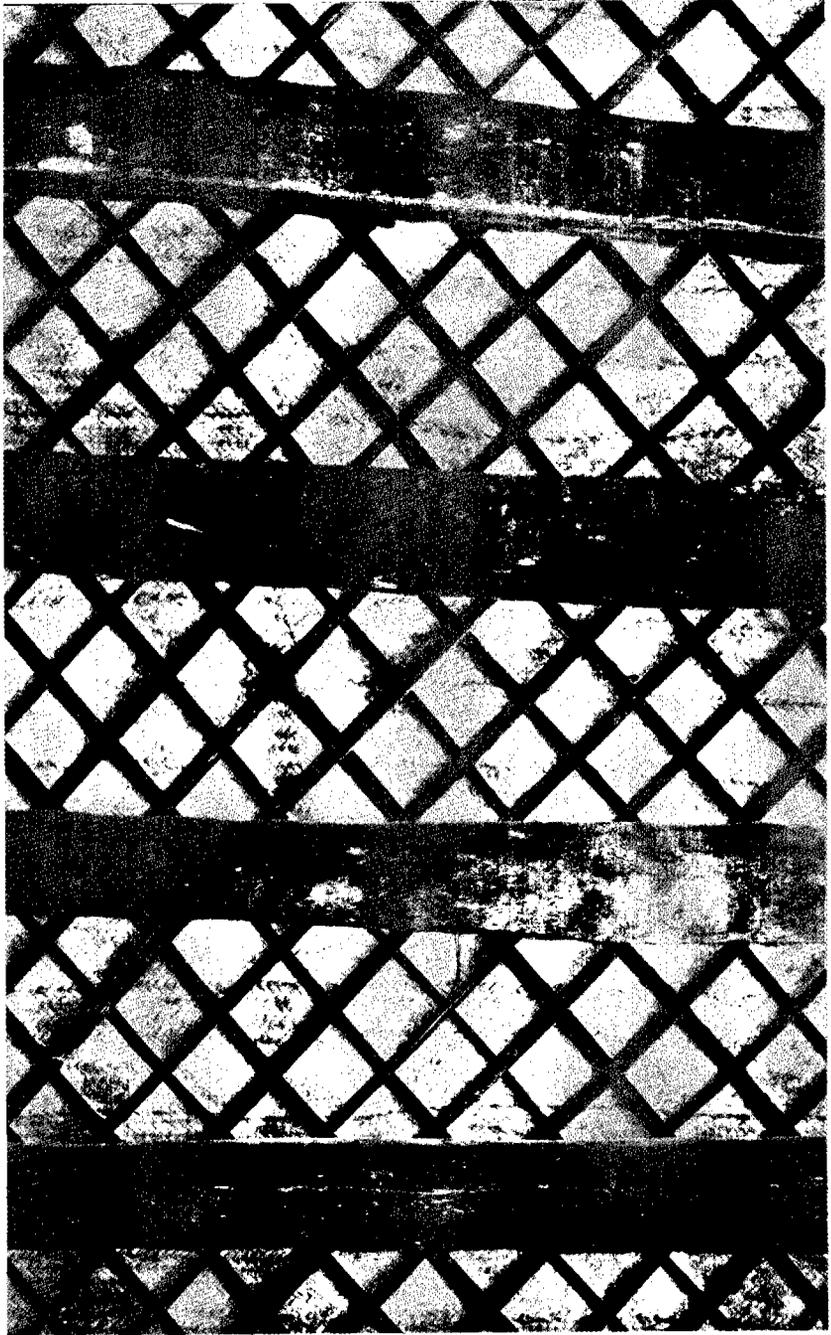
حدثني صديق أن الناس كانت تخرج قبل أذان الفجر وتقف على أبواب الحرم رغبة في سماع المؤذن محمود نعمان رحمه الله الذي توفي في حقبة السبعينات الهجرية - ولهذا فأنا لا أعرفه ولم أسمع به إلا بعد مضي زمن على وفاته ، ولعل هذه الحقيقة تشفع لي عند بعض من أصدقائي الذين إذا ما حدثتهم عن أمر أعرفه من أمور البلدة الطاهرة أخذهم الظن بأنني أكبر منهم سناً - وإن كان لا بأس علي من هذا الوهم الذي يداعبني بشأنه ثلثة من الأصدقاء الكرام ، كان « النعمان » ثالثاً لعبد الستار وحسين بخاري - أسكنهم الله فسيح جناته - ومع أنني لا أجد من بين مؤذني اليوم من أخذ بقاعدتي الأخيرين في الأذان إلا أنه يمكن القول أن قاعدة - محمود نعمان - هي القاعدة التي يسير عليها بعض من مؤذني المسجد النبوي - في الوقت الحاضر - ولولا خشية الإطالة

لفصلت الأمر في تلك القاعدة، ولعلها مناسبة أشير فيها إلى أن الصوت الحسن في الأذان مطلب أيده السنة النبوية وذلك عندما اختار النبي ﷺ سيدنا بلالاً - رضي الله عنه - ليصدع بكلمات الإيمان من هذا المسجد الطاهر لأنه أندى صوتاً من بقية الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين . .

ومحمود النعمان هو من أسرة عريقة تعرف قديماً باسم « بيت الحنبلي » نسبة إل مذهب الإمام أحمد بن حنبل - عليه وعلى بقية الأئمة الكرام رضوان الله ورحمته - وكانت في هذه الأسرة مشيخة الأذان لفترة من الزمن حيث تولى الشيخ محمد سعيد نعمان والد الأستاذ عبد الملك المؤذن حالياً بالمسجد شؤون المؤذنين لفترة من الزمن وخلفه في تلك المهمة الشيخ عبد الله رجب رحمه الله ، ولقد صحح الأخ الكريم محمد سعيد أحمد حوالة - جزاه الله خيراً - معلومة سبق أن ذكرتها عن زقاق « الحنابلة » فحدد مكانه بأنه كان يقع في الجهة المقابلة لباب الملك سعود - رحمه الله - ولقد أزيل هذا الزقاق في التوسعة السعودية الأولى للمسجد النبوي كما أكد لي ذلك الشيخ جعفر بن إبراهيم فقيه - رحمه الله - ولقد كان بعض من أسرة « آل النعمان » يسكن في ذلك المكان ، وكنت استفسرت من الصديق الشاعر الأستاذ خالد النعمان عن رجل من آل النعمان اسمه « محمد علي » عرف بجمال الصوت وكريم المعشر قبل ما يزيد عن نصف قرن ، فلقد سمعت قبل ما يقرب من عقدين من الزمن رجلين يتحدثان عنه وهما عبد الستار بخاري وحمة مقلبه - رحمهما الله - كان ذلك في « سويقة » وفي يوم أغر من أيام البقعة التي طابت بحلول سيد الخلق فيها عليه صلوات الله وسلامه .

وهذه مناسبة مواتية للقول بأنه كان ينتدب لأداء هذه المهنة الشريفة الصفوة من الناس سلوكاً وخلقاً ، وتفتخر تلك الأسر بتنشئة أبنائها على أدائه ، ولعل إدارة الحرمین الشریفین تسعى برعاية المسؤولين الكرام فيها للحفاظ على هذه المؤسسة المتجذرة في التاريخ الذي هو جزء هام وثمرین من تاریخ هذا الدين العظيم وآدابه السامية .





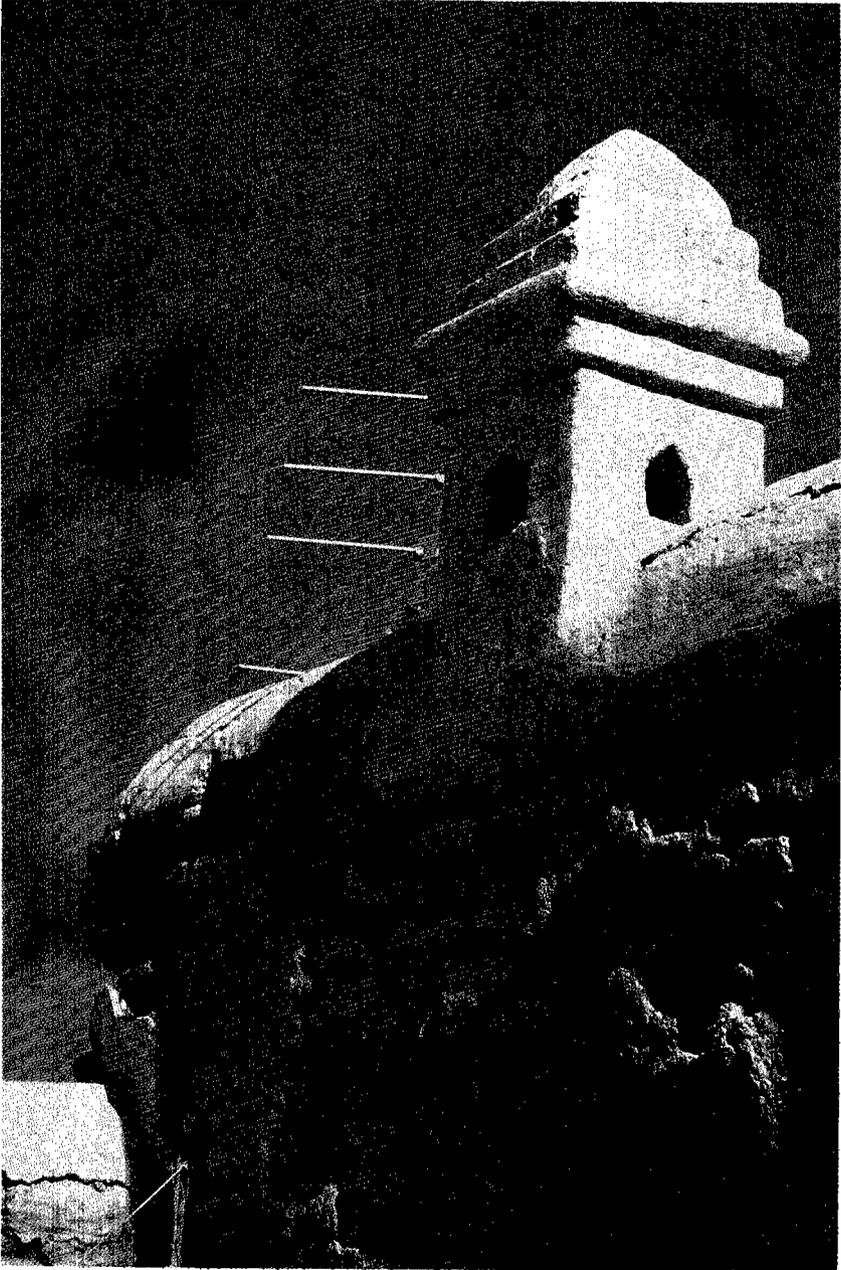
(٧)

في الليل الذي تنوء بي همومه ، وثقل على نفسي الخواطر فيه ، لكم تسللت إلى الحارة والفجر لم يطلع بعد نوره ، أطرق طرقات خفيفة على باب الدار العتيق فالدور متقاربة وأخشى أن يوقظ الآخرين وقع أقدامي يأتيني صوتك من سطح الدار الذي تتقاسم مساحته أنت وبقية أفراد بيتك وعجوز تجاوزت الثمانين من العمر أعطها حب الله وحب رسوله ﷺ من النور ما لا يكاد يخفى على الناظرين إليها ، تشد عمامتك البيضاء على رأسك وتقابلني عند عتبة الدار فلا أجد في ملامح وجهك غضاضة بل أنت فرح بقدومي ، متهمىء لصحبتى ، تشق طريقنا في الشارع الذي يفصل البقيع عن الحارة وكان شقه الملاصق للحارة ممهداً والآخر المجاور « للمقبرة » مسفلتاً ، ويقوم في أوله من جهة « باب العوالي » مرتفع كبير يقع في وسطه قبر أحد صحابة رسول الله ﷺ وإذا ما أخذت خطواتنا تقترب من نهايته الموصلة إلى مدخل الحارة من جهة البقيع كنا نلمح رجلاً يميل سلوكه إل العزلة فهو لا يتحدث إلى أحد ولكن طيبة قلبه تجد لها دليلاً في ملامح وجهه ، ولكأني به أعتني بصحبة الخالق عن صحبة الخلق ، إنه « عم قونيه » يجلس على حافة الشارع إذا ما أوصدت أبواب الحرم وانصرف الناس إلى دورهم ، كما تلمحه هناك إذا ما أشرقت الشمس بنورها على سماء البلدة الطاهرة يريد لها نوراً ذلك الألق الذي ينبعث من قبة المسجد ومنارته .

أحدثك وأنت تصغي إلي ، أشكو إليك من الهموم ما لا يسر
الإنسان به إلى صديق ، تدير حبات مسبحتك اسمع كلمات الذكر
تنطلق من بين شفتيك فتطمئن نفسي ويعود إليها سكونها ثم تقول
كأنك تجيب على شكواي « يفرجها الله » وأحياناً تختصر القول كله في
عبارة واحدة « مفروجة » ندخل البقيع وقد انفتحت أبوابه بعد صلاة
الفجر ، توجه الحديث لي قائلاً : تلك يا بني دورنا وهذه قبورنا !! ألم
يكن أصحاب هذه القبور أشد حرصاً منا على الدنيا ، ولكن أين هم
اليوم ؟ تستقر كلماتك في أعماق نفسي ، وهي اليوم على بعد الزمن
تستدر دموعي ، وهي دموع النازح عن أرض الحبيب المتشوق إلى أفياء
الرحمة والرضوان التي خصها الله بها .

تسير بي في طريق متعرج خلف جدار البقيع ، دور متهدمة ،
وأخرى قائمة ، وبقايا من نخيل تلوح لنا جذوعه كلما توغلنا في طريقنا
إلى دار صديقنا « معاذ » وفي فضاء تلك الدار أوريا بالقرب منه تقوم
بثريستقي منها الناس ، يصنع لنا الأخ في الله كأساً من الشاي ويقدم
لنا كسرة من الخبز مصنوعة من الشعير يقول مبتسماً هذا طعام
المساكين ، نفرح بما يقدم نأكله كأننا لم نأكل من قبل ، ثم نتناقش في
أمور كثيرة وربما احتددنا في النقاش ، وكثيراً ما كانت كلمة الفصل
تأتي من صاحب الدار فهو طالب علم وكثيراً ما يتردد على حلقة الشيخ
محمد المختار - رحمه الله - التي كانت تقوم في وسط المسجد ، أو على
حلقة الشيخ محمد المنتصر الكتاني التي لا تبعد كثيراً عن حدود
الروضة .

لا زلت أذكر إذا ما أويت إلى دارك بعد صلاة العشاء وكانت أزقة
الحارة تضاء بالأناريك والناس يأوون إلى الدور فيها مبكرين ما زلت



سطح منزل « الزين » ويبدو على سطح المنزل المجاور والمرتفع قليلاً البناء الذي كان يعرف في أعلى دور المدينة القديمة باسم « الطيرمة »

أذكر رجلاً طویل القامة ممتلئ الجسم من أهل إفريقيا یسلم علی الناس فی دورهم ثم یقدم لهم ، علبة من عود الثقاب ، وما زلت أذكر رجلاً من المجاورین - والذین یكثرون التردد علی الحارة - یقدم الورد فی صباح کل یوم « جمعة » للناس ، والمدينة تشتهر بساتینها بالورد والفعل والیاسمین كما اشتهرت « بالفاغية » وبعض من الشعر الذی كتبه شعراء المدينة . . لا یخلو من ذکر ما عرفت أرضها بزراعته وتربتها باستنباته .

یا صدیقی الذی لم تدر وجهک عني يوماً ولا أغلقت باب دارک فی وجهی ، ولا تبرمت من تردادی علیک .

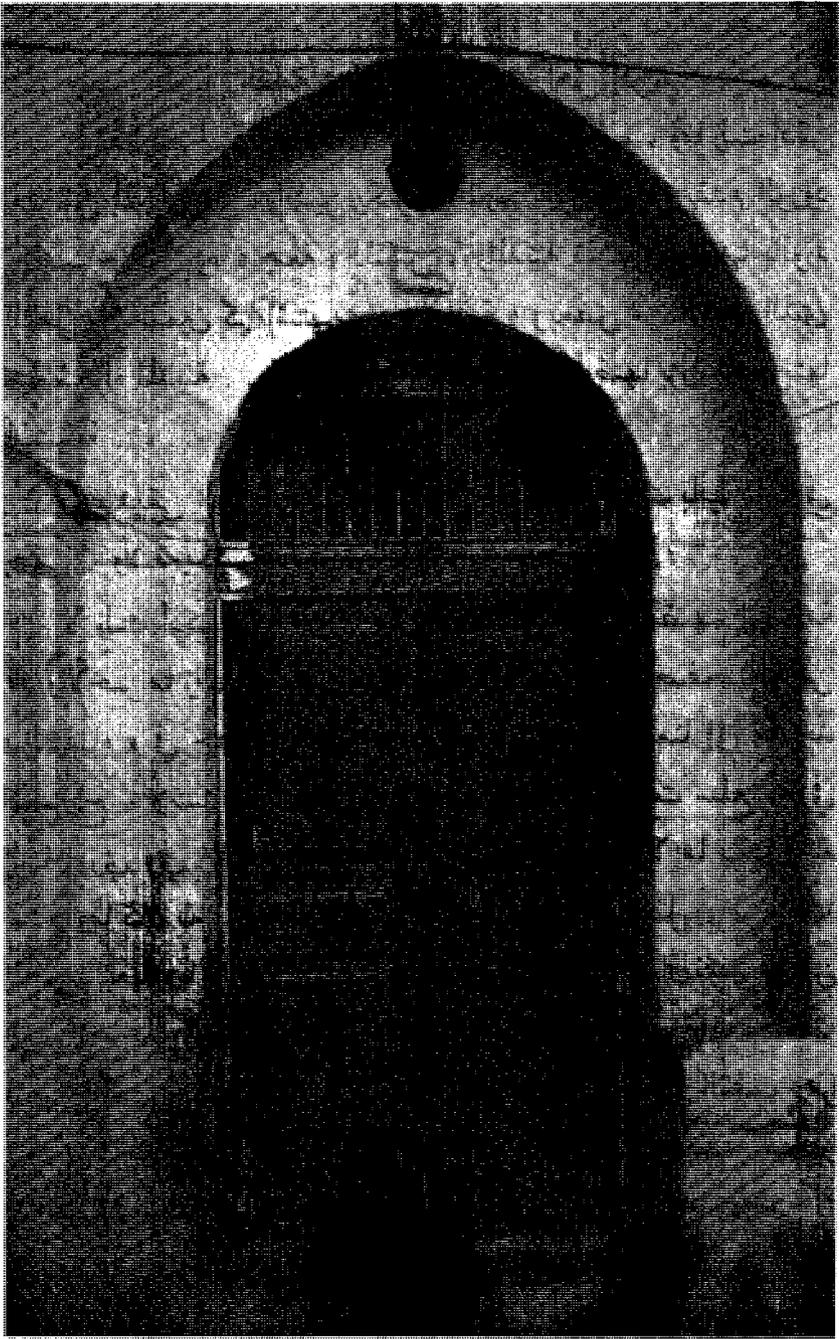
لا زلت أذكر لیالی الصفا مع أحباب لنا انتقل بعضهم إلى رحمة الله والآخر ما زال باقیاً فی دار الفناء ، فلکم قرأنا صفحات من « الشفاء » فی حصوة الحرم ، ولکم سرنا علی أقدمنا إلى مسجد المستراح ، وبستان « المصرع » ولکم ضمنا فی جنبات سلع ، وفی التاجوری وفی زقاق الطوال مجلس لا نسمع فیہ إلا ما یرضی الله عنا ، وما كان لله دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل ، من ذلك الماضي البعید « یازین » یأتینی صوت الحادی ، یحرك فی أعماق نفسي کوامن الشوق ، ویحلق بها فی عوالم الصفاء الأبدي ، إنک مثلی كثيراً ما سمعت :

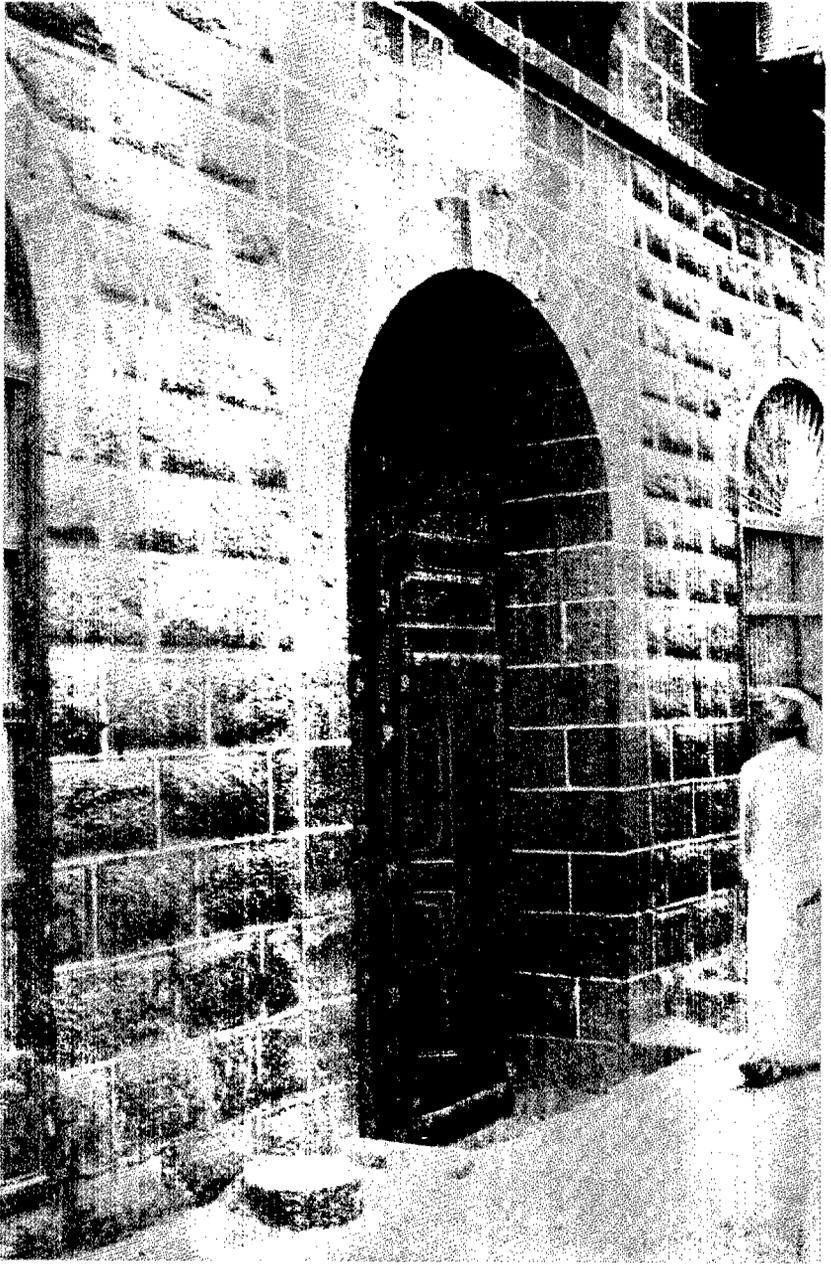
فراق أحبتي كالصبر مرا وأشعل جهم فی القلب جمرا
نحلت لبعدهم واللیل أدری أقول لنسمة هبت سحیرا

فما حال الأحبة خبرینی

فإن كانوا نسوا ما كان عندي ولم يتذكروا عهدی وودی
وغیري واصلوا وترکت وحدي أقاسی لوعتی ، والوجد وحدي

فعند دیارهم تلك اذکرینی





رباط الميمن بحارة الأغوات والذي كان يصلُ إليه قاصدُهُ عن طريق ساحة باب السَّلام

(٨)

كنت توقفت قليلاً في الحلقة السادسة من هذا الموضوع عند بعض الشخصيات التي عرفت بصوتها الحسن وأدائها المتميز . فكان من هذه الشخصيات مؤذنون وكان منهم منشدون ، ولكن هناك ظاهرة ارتبطت بحياة بعض هذه الشخصيات ، وأعني بها ظاهرة النزوح عن المدينة ثم العودة إليها بعد حقبة من الزمن ، ولعل الظروف التي مر بها المجتمع المدني قبل أن يصبح هذا المجتمع جزءاً من مجتمع الجزيرة العربية الذي أراد الله له أن يتوحد على يد المغفور له جلالة الملك عبد العزيز - طيب الله ثراه - وكان من آثار ذلك تلك المظاهرة الإيجابية المتمثلة في نشر الأمن . ونبذ الخلاف ، والمساواة بين الناس ، أقول إن تلك المظاهر كانت في تلك العصور الماضية سبباً وراء نزوح أهل المدينة وكان من بين هؤلاء النازحين حفظة لكتاب الله ومؤذنون في مسجد رسول الله ﷺ وأدباء عرفوا بإبداعاتهم الشعرية المتميزة .

« إبراهيم محمد زين سمان » - رحمه الله - كان واحداً من المؤذنين الذين نزحوا إلى بلاد الشام وأقام بها فترة طويلة ثم عاد إلى المدينة في حقبة الثمانينات الهجرية ، ولقد أدركته - رحمه الله - بعد عودته إليها ، وكان ذا هيئة حسنة « جبة بيضاء وعمامة أقرب في شكلها إلى تلك التي كان يلبسها العلماء » ، وكان صوته يحمل بقية من تلك الطلاوة التي اشتهر بها في المجتمع المدني ، كما أن الكتاب الذي طبعه من بعده ابنه

- أحمد السمان - رحمه الله - وجمع فيه عدداً من القصائد والمقطوعات الشعرية ، يدل على أن عدداً من أفراد هذه الأسرة الكريمة عني بالشعر وروايته وإنشاده . .

وإذا كان إبراهيم السمان اتخذ من بلاد الشام مسكناً له بعد خروجه من المدينة فإن ثمة نفرأ من مؤذني المسجد أقاموا بأرض « جاوا » ومنهم أبو بكر خوج والأستاذ عبد الستار بخارى - رحمهما الله - ولكنهم عادوا جميعاً إلى المدينة ، عرف الخوج بمواظبته الدائمة على أداء الأذان وخصوصاً الأذان الأول في صلاة الفجر ، يجلس - رحمه الله - مع عدد من المؤذنين في مؤخرة المسجد ، يضبطون ساعاتهم ، ويتهيأون لصعود المنائر التي يصدحون من فوقها بكلمات التوحيد والإيمان ، في تلك البقعة كثيراً ما رأيت أصدقاء الخوج الذي قليلاً ما كان يخلع عباءته من فوق كتفيه ، رأيتهم يمازحونه ويداعبونه بكلماتهم ، وهو مزاح لا يخرجه عن وقارهم وأدبهم الذي تعكسه وجوههم النيرة وهيئاتهم الحسنة ، وإني لأتذكر صديقين له يجبانه ويحبهم - في الله - وهما إبراهيم شيرة ، وبكر عبد الجواد - رحمهم الله جميعاً - وكان يجلس غير بعيد من القوم رجل تقوم بينه وبين المسجد صلة قوية وألفة دائمة وهو المرحوم - سليمان عبده .

أما الأستاذ : عبد الستار الذي كان يتميز بين زملائه بحفظه لكتاب الله ومعرفته المتعمقة باللغة العربية في أصول كلماتها ونحوها وصرفها ، وروايته لتلك الإبداعات الشعرية التي فاضت بها قرائح بعض شعراء المدينة الذين عرفوا بإجادتهم لفن القول إجادة لا تقل عن تلك التي وجدت عند نظرائهم من شعراء العالم العربي ، وهم عبد الجليل برادة وإبراهيم الأسكوي ، وأنور عشقي ، ومحمد العمري ،

حياة الأستاذ عبد الستار ونشاطه لم يقتصر على بلاد «جاوا» وحدها فلقد عاش فترة من حياته في مكة المكرمة ، حيث كان على صلة قوية بالشيخ عباس قطان - رحمه الله - أحد وجهاء مكة المعروفين - ولعل تلك الصلة دفعته إلى الإقامة بمكة ، ولقد أخبرني الشيخ الفضال - عبد الله بصنوي - رحمه الله - والذي عاصر عدداً كبيراً من مؤذني المسجدين الشريفين - أن الأستاذ عبد الستار ، كان يؤذن بين الحين والآخر إبان إقامته بمكة ، وأظنه عاد إلى المدينة في بداية الستينيات الهجرية ، فلقد سمعته يوماً يقول : قابلني أحدهم عند وصولي إلى المدينة وأخبرني بوفاة السيد / عبد الرزاق نجدي - رحمه الله - ، وهذا الأخير كان من أشهر مؤذني المسجد ، وأتصور أنه أكبر سناً من الأستاذ / عبد الستار ومن هم في طبقة من المؤذنين ، ولقد أدركت شخصياً السيد حسين نجدي - رحمه الله - الذي كان صاحب صوت متميز ولكنه ترك الأذان في آخر حياته . . .

عندما يرتفع صوت « أسعد نجدي » من فوق منائر المسجد الشريف فإنك سوف تشعر بتلك النفحات التي تلامس أذنك مواضع النفس الإنسانية ، ويتفاعل مع ذلك الصوت الندي الوجدان الخالص الذي فطر الله الإنسان عليه ، وهو نفس الشعور الذي أحسسته عندما سمعت لأول مرة صوت المؤذن الشهير - عبد العزيز بخاري - وكان لم يستقر بعد في المدينة ، وكانت النفس تتجاوب مع صوت الشاب وتسبح في أجواء يظللها الرضوان وتحوطها السكينة ، ورأيت يومها الناس يسرقون النظر إلى صاحب هذا الصوت وهو يخرج من منارة « الشكيلة » محسكاً مفتاح المنارة بيده ، ولم يكن غريباً على الأجداد والآباء من مؤذني مسجد رسول الله وخليله الذي اصطفاه من

بين خلقه ليس غريباً عليهم أن ينشئوا أبناءهم على تلك التربية التي
تستمد تعاليمها من كتاب الله وسنة نبيه ومصطفاه ﷺ ، إنهم ليس
فقط جيران الحبيب الذي أوصى في أحاديثه الصحيحة برعايتهم ،
ولكنهم كذلك أطول الناس أعناقاً في يوم الزحف الأكبر .





(٩)

سعدت جداً بمتابعة الأستاذين الكريمين أحمد محمد جمال واللواء الشاعر علي زين العابدين للحلقات المنشورة على صفحات هذا الملحق الأغر عن بعض مناحي الحياة الاجتماعية في بلدة الرسول ﷺ وقالوا : إنها ينتقلان من خلال تلك القراءة إلى عقود مضت يتذكران فيها المواضيع التي نشأ فيها « ولا شك أن الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة تشكل إغراء كبيراً لكاتبين يحمل كل منهما نفساً شاعرة قادرة على التصوير متمكنة من أدوات التعبير الفني كما هو ملاحظ في إبداعاتها التي أثريا بها فنون الأدب في بلادنا الكريمة وما يزالان - حفظهما الله - يمتعان عشاق الكلمة بذلك الحس الصادق والمتمثل في العديد من المشاركات الفكرية والأدبية ..

ولقد عشت من عمري أوقاتاً ممتعة في رحاب مكة المكرمة أتقل فيها بين جبل الكعبة في حارة الباب . وبرحة القطان في الشامية والدحلة وشعب عامر وزبيدة في العتيبية ، عرفت فيها دور العلماء من جيران بيت الله ، أتملى وجوههم النيرة فتقر عيني ، وأستمع إلى أحاديثهم فتستقر الكلمات منهم في أعماق نفسي . أي در الذي ينثرونه على الإسماع وأي وعظ ذلك الذي يستلهمون فيه حياة السلف الصالح من هذه الأمة .. وأي فقه ذلك الذي يتخرجون فيه من القول بكتاب الله بغير علم .. كأنهم في هذا يتمثلون خطى رفيق المصطفى ﷺ

وصديقه سيدنا أبي بكر الصديق . . رضي الله عنه . . الذي يقول « أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله بغير علم » وأي سكينه تلك التي تظل مجالسهم في « الصحن » وأي عقب ذلك الذي يفوح عندما ينقلون خطاهم بين « الحجر » وعتبة باب السلام قوم لا تعرف الشح أيديهم . وتنسبط موائدهم لطلاب العلم . . لا يفرقون في ذلك بين مقيم وقادم وصغير وكبير . .

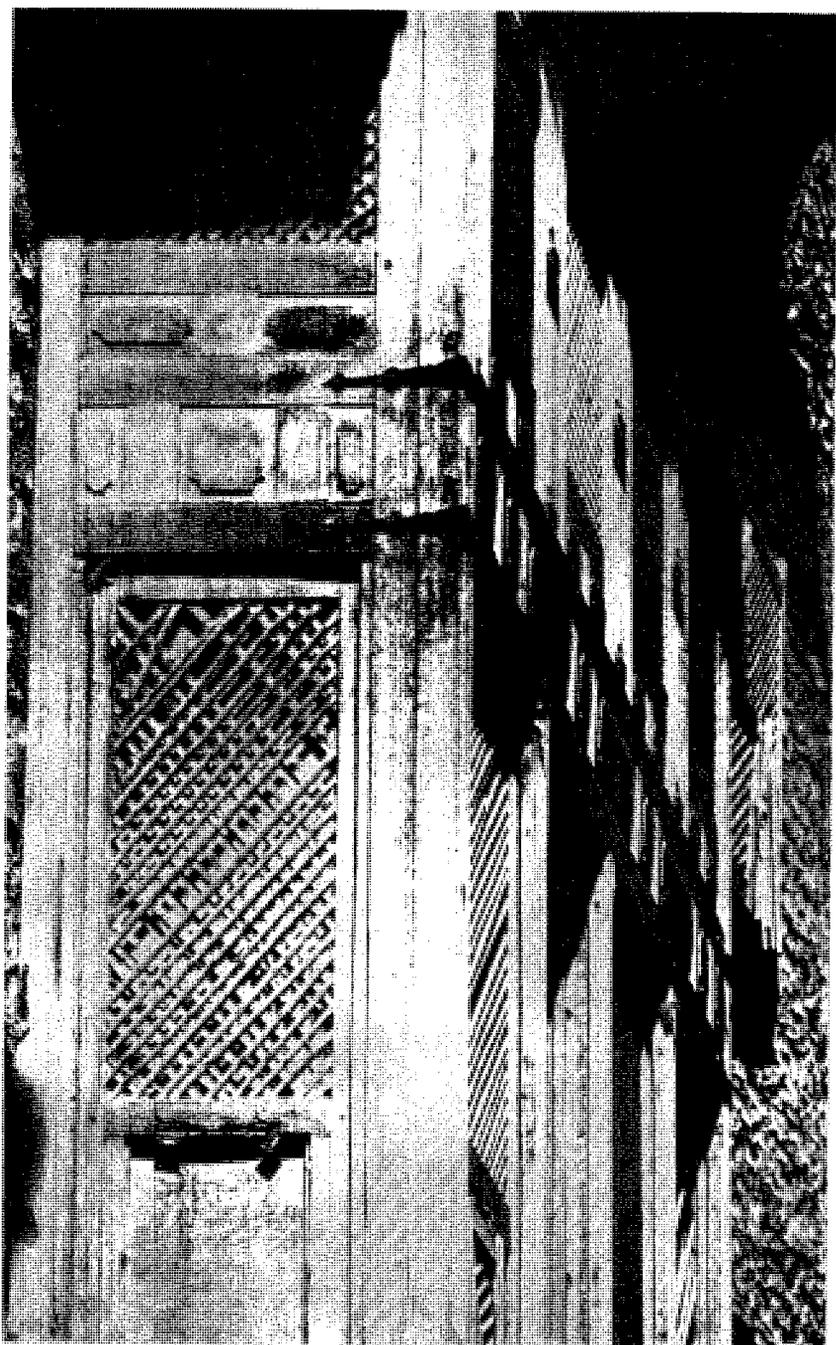
لقد شربت - يا أساتذتي - الماء قراحاً من أيديهم ، وتلقيت أحاديث المصطفى ﷺ رواية ودراية في حلقاتهم ، ولكن أفاضوا علي من عطفهم ، فإذا العربة تذهب وحشتها والبعد عن ديار الأهل في « طيبة » ينمحي الإحساس به . ولن يضير النفس - اليوم - بعد أن ترعرعت بحبهم أن تعبر والقلب بعد أن عايش أنسهم أن يتحدث والمشاعر بعد أن تغذت من كريم أخلاقهم أن تصرح .

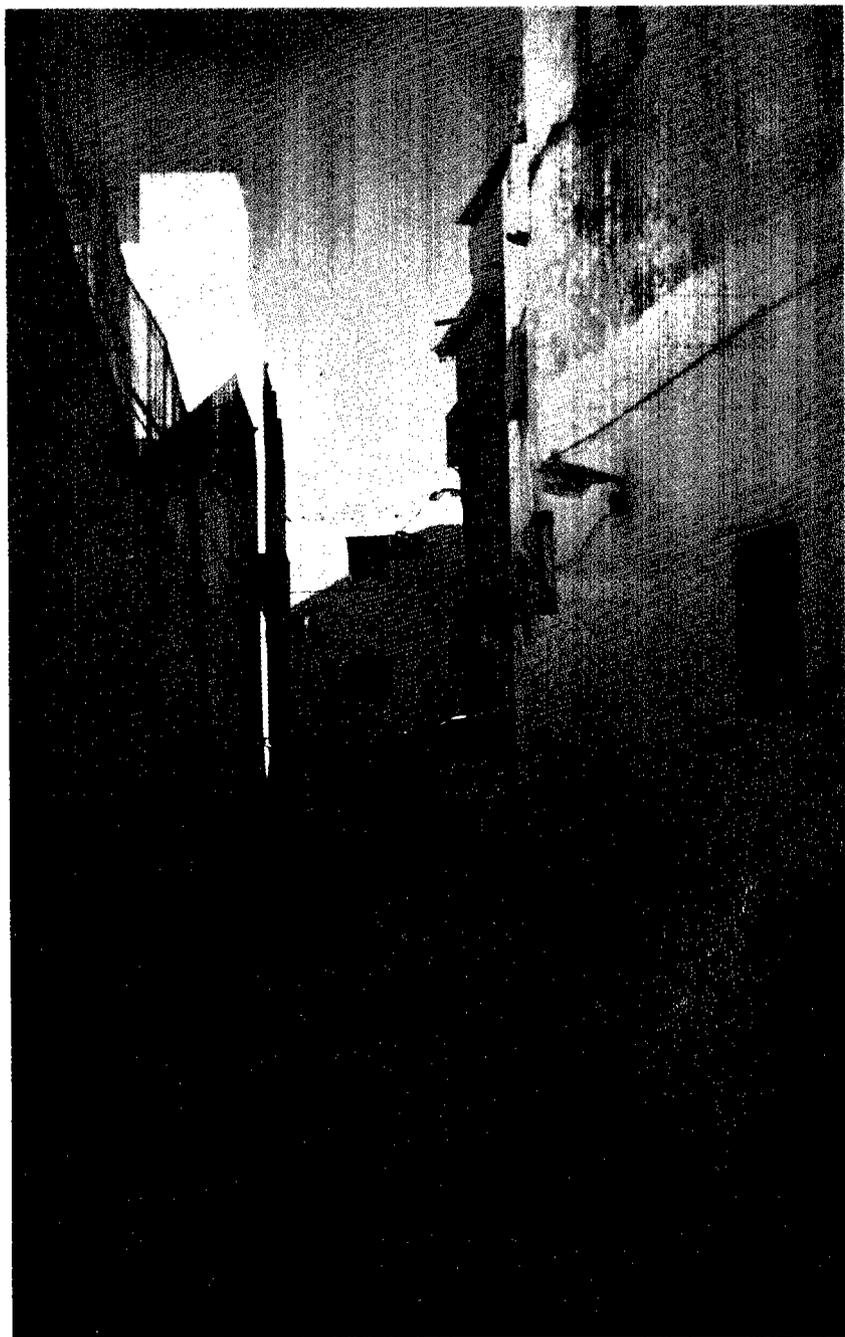
وعندما ذهبت لأتعرف على وجوه القوم في البلد الكريم وإحيائه فإذا أنا برجل لا يغريه طول قامته بأن يتناول على الآخرين . . ولا يبعد شموخه الذي فطر عليه عن عامة الناس الذين يجدون في كريم عطائه ونبل أخلاقه ما يحملهم على طرق بابهِ وندب فضله . . إذا برجل يحلم عندما يتجسد على ملامح الناس الغضب فلا يجدون سبيلاً إلى كتمانهِ ، ويتسّم عندما يظن الآخرون أن نوازل الدهر سوف تحول بينه وبين فقدان ذلك الصفاء الذي لا يحل إلا في نفوس امتلأت بمعرفة الله وانصقلت بحبته وسارعت إلى رضائه . .

إذا أنا برجل يرتفع صوته في « المقام » مؤذناً والناس نيام . ويجلس بينهم متحدثاً في ضحى النهار فإذا الصوت منه خفيض ، والحديث

منه مهذب ، والقول منه مفيد ، إذا أنا برجل في ساعة الشدائد يخشى بأسه أولئك الذين تغريهم نفوسهم بالتعدي على الآخرين ومع هذا فقد سمعته يوماً يقول : الشجاع من يضبط نفسه في لحظة الغضب . .

لقد حللت - يا أساتذتي - في حي الشامية فإذا فيه قوم يحبون النزيل ويكرمون الضيف . وكان على رأس هؤلاء القوم الكرام هو من تحدثت عن صفاته - أنفأ - فضيلة الشيخ عبد الله محمد بصنوي - رحمه الله - ويعلم الله أنني لم أتزيد في قول . ولم أبالغ في وصف ، ولكنني ذكرت بعضاً مما أعرف ويسيراً مما شاهدت وإنه لن يكون غريباً على القوم الذين ولد في أرضهم سيد الخلق عليه صلوات الله وسلامه - وتتنزل الرحمات بين دورهم وتنفتح العيون منهم كل صباح على مشهد هو خير من الدنيا وما فيها مشهد بيت الله المعظم ، لن يكون غريباً عليهم أن يجودوا في غير سفه ، وأن يعطوا بغير منة ، وأن تتنزه منهم النفوس عن ضمائر السوء والألسن عن فاحش القول فطوبى لمن عرف وهنيئاً لمن ذاق ، ومن ذاق عرف . .





ولكم أتيتُ الحارة ضحى فإذا الناس يشربون الشاي معطراً
«بالنعناع» في مقهى المعلم طينفور، أو في الرحبة التي تقوم أمامه
أنصت السمع لأحاديث الكبار من القوم يتذكرون ماضياً تصرم عهده
وانقضت أيامه ، وتلوح لهم الذكريات فيبتسمون وربما ترتقرق الدمع
في أعينهم على حبيب فقدوه أو صديق سبقهم إلى الدار الأخرى ،
وكان أكثر ما يشدني إلى القوم ذلك الصفاء الذي انطبعت به
نفوسهم ، أهو وليد الحياة البسيطة التي كانوا يعيشونها ؟ أم أنهم نشأوا
هكذا لا يعرفون خداعاً يفسد الحياة ويشوه فطرتها ، ولا يميلون إلى
كذب وادعاء يمجّه الذوق وتأباه الطبيعة السليمة ؟

وكما بلوت القوم في الحارة على هذا الضرب من الخلق الرفيع ،
فلقد كنت أتسلل إلى مجلس والدي خلسة لأستمع بأحاديث الصفوة
من أصدقائه وأقول خلسة لأن للمجالس في بلد الرسول ﷺ تقاليد
يرعاها الكبار ولا يخرج عن آدابها الصغار ، فصدور المجالس لا يحل
فيها إلا كبار السن ، وحديثو السن من الشباب لا يرفعون صوتاً ولا
يقاطعون كبيراً في حديثه ، بل ويمعن البعض في تلك التقاليد فشرب
القهوة من قبل الصغار في مجلس يؤمه الضيوف أمر غير مستحسن
ويحث الآباء أبناءهم على تجنبه .

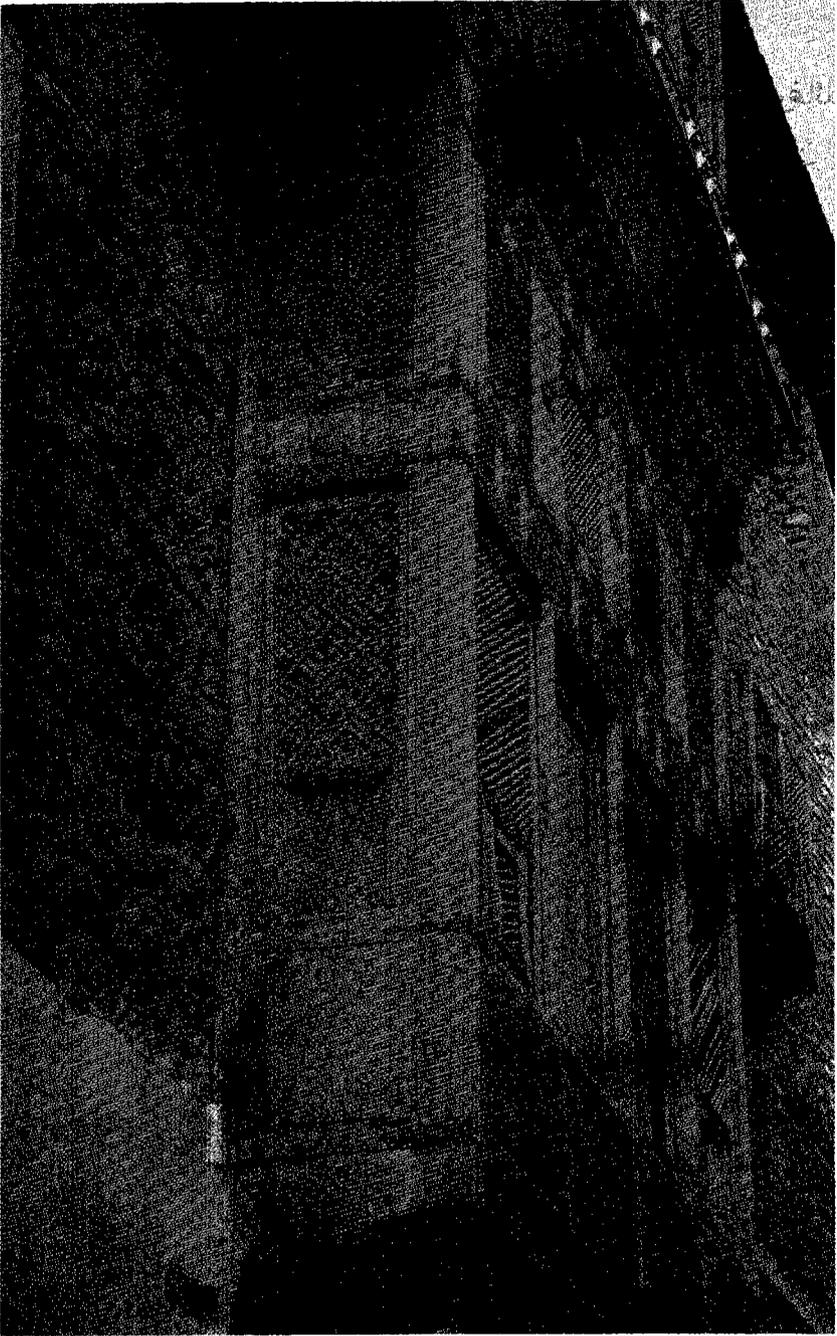
نعم لقد كنت أتسلل إلى مجلسهم فإذا رأوني ابتسموا . في

نظراتهم حنان ولحديثهم طلاوة كثيراً ما كانت تشدني ، فما أسمعه منهم لا أجده في بطون الكتب ، وأفتقده بين لداتي من الشباب ، وتتشعب أحاديثهم وتتعدد موضوعاتها ، ولكني لم أراهم حريصين كحرصهم على البعد عن ذم الناس أحياء كانوا أو أمواتاً ، إنهم ليغضبون أشد الغضب إذا ما حل عليهم أحد من خارج جماعتهم وأراد أن ينال من الناس في أنسابهم أو يلوك لسانه في خصوصياتهم ولعلي لا أبالغ إذا ما قلت إنهم صراحة كانوا يطلبون منه الانصاف عنهم والابتعاد عن مجالسهم ، وأرجع إلى نفسي أحدثها . . أين أولئك القم من أقوام لا يتورعون عن النيل من أناس ربما كانوا خيراً منهم سلوكاً ، وأحسن خلقاً ، وأنقى سريرة ، نعم لقد كان الحديث في أنساب الناس عند رجال عرفتهم يؤمنون دارنا أو نؤم دورهم سجية تهبط بأصحابها في ميزان الرجال وأعرافهم ، وإن الفطرة في هذا الأمر لتتلاقى مع قواعد الشرع الحنيف الذي يأمرنا بحبس ألسنتنا عن قول السوء والتجني على الآخرين .

كثيراً ما تردد على سمعي هذا البيت من الشعر :

كن ابن من شئت واكتسب أهياً * يغيثك محموده عن النسب
لقد سمعته كثيراً ولكن المرة الأولى التي بلغ فيها مسمعي كان جملة
من كلمات لوالدي - أبقاه الله - يخاطبني بها . والذي إذا ما حدثني
أشار إلي بيده كأنه يحذرنى من التفاخر بما تعده أحاديث الرسول ﷺ
جاهلية ممقوتة وعصبية مذمومة ، ثم يردف القول مستشهداً بقول
المصطفى ﷺ وشفيع الناس في يوم الزحف الأكبر : « سلمان منا آل
البيت » .

الجوار صنع في نفوسهم الحب ، وبرأها من ظلمة الحقد وغائلة الكراهية ، والهجرة جعلتهم يعيشون آداب الإسلام عن إيمان ، ويتمثلون قيمه فيما يأتون من سلوك أو يقدمون عليه من عمل ، وحب سيد الخلق - عليه صلوات الله وسلامه - أوجد في نفوسهم رقة ، إذا نظرت في وجوههم خلتهم أسوداً ، وإذا دنوت منهم وذكرتهم فسوف تجيبك منهم أعين تفيض بالدمع ، والسنة تلهج بالذكر ، وقلوب لا تعرف الذل والانكسار إلا لبارئها فرحم الله منهم من ذهب وبارك في من بقي ، وهدانا الله سواء السبيل .





(١١)

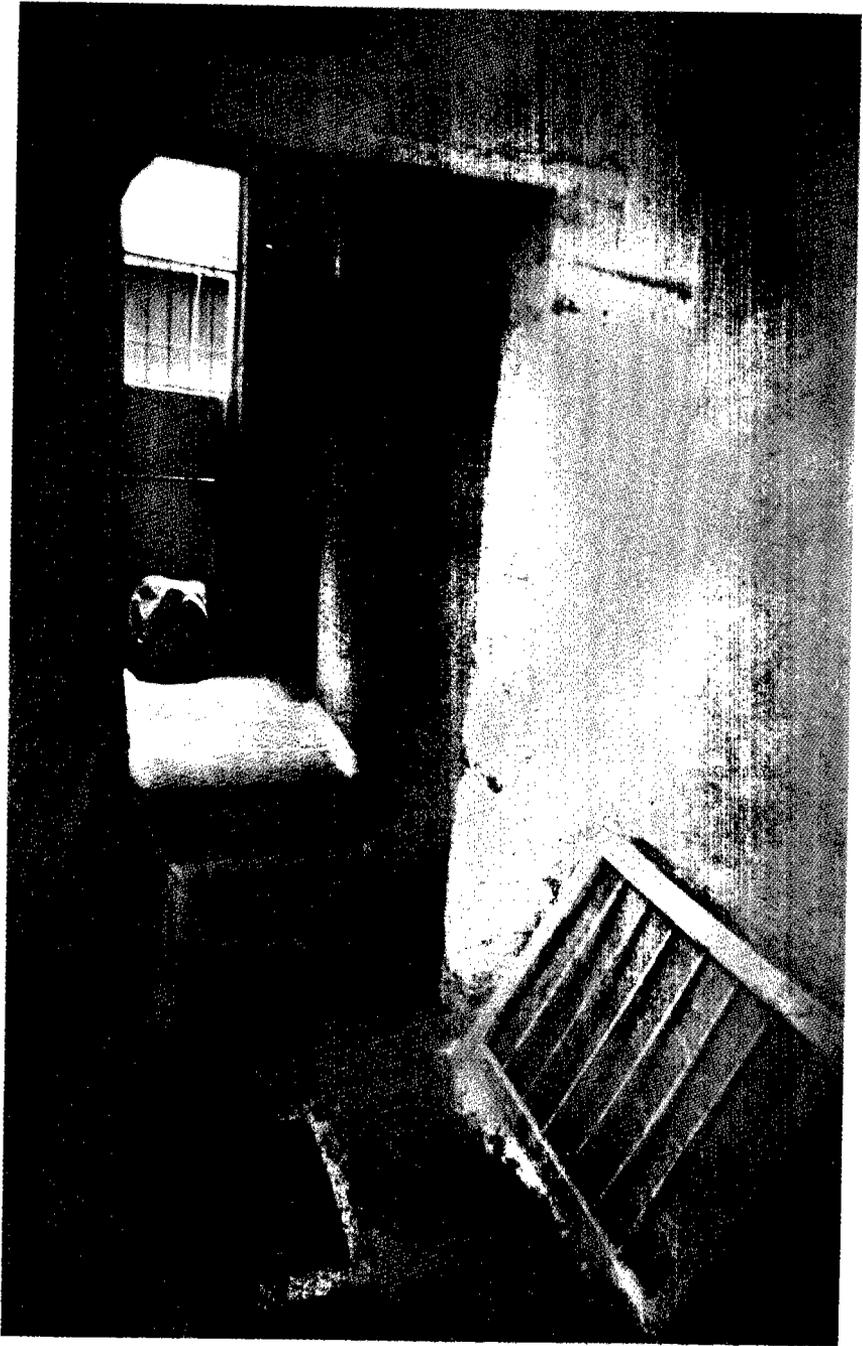
إذا ما أمطرت السماء في بلد رسول الله ﷺ انغسلت معها النفوس وتطهرت القلوب وما أكثر أدران الحياة وما أضعف هذه النفوس في مواجهة نعيم الدنيا وإغراءاتها يهرع الناس إلى الحرم يمتعون النظر بمرأى القبة الخضراء الحاضنة للرحمة المهداة للعالمين وهي تستقبل رحمة السماء ينسكب الماء من كل ميزاب في الحرم يلامس ذرات الأرض التي يعفر الناس فيها وجوههم من جميع أطراف الدنيا لخالقهم وليس في المدينة موضع إلا ويشهد بوحدانية الله وليس بين أحيائها موقع إلا وتنقلت فيه خطوات سيد الخلق عليه صلوات الله وسلامه أو اجتمع فيه صحابته رضوان الله عليهم أو زار فيه مريضاً أو شيعَ فيه ميتاً .

لن نستكثر على بعض سلف هذه الأمة حبهم لتلك الأرض ليس للأرض ذاتها فلقد كانت قبل حلوله فيها موثلاً للحمى وتحولت بعد هجرته إليها مصدراً للنور لن نستكثر عليهم هيامهم بآثارها فالآثار قبله كانت أطاماً يتقاتل من فوقها الناس وبعده أضححت مساجداً ترتفع من فوق مآذنها كلمات الحق التي أمره الله أن يصدع بها ولئن افتخرت الحضارات الأخرى بملاحمها في ميادين الكر والفر فأرض المدينة تروي ملاحم الحب الذي صنعه سيد العرب عليه أفضل الصلاة والتسليم بسجاياه العظيمة . . ألم يؤلف قلوباً كانت متنافرة ويقضي على ثارات كانت متأججة ويوحد جمعاً كانت متفرقة ، جمع الله له السلاح والمعجزة

في شيء واحد لقد كانت المعجزة في الكلمة فهي وحي يتنزل وقرآن يتلى وقيم سامية تُطبَّق ، بالقرآن استقامت له قلوب الناس لقد داوى القرآن قلوباً غلاظاً وهذب طباعاً شاذة بالأمس كانوا يقاتلون بعضهم البعض واليوم يقاتلون عدواً واحداً . بالأمس كانوا يغيرون على جيرانهم واليوم يجعلون للجار حرمة وللآخر ذمة . . بالأمس كانوا يسهرون فيحيلون الليل لهواً وصخباً واليوم تهجع منهم العيون في أول الليل وترتفع منهم الأكف في الهزيع الأخير منه يناجون مولاهم بألسن لا تعرف الكذب وقلوب تنزهت عن الحقد وأنفس ترفعت عن صغائر الحياة وإذا ما أظلمهم الصبح فهم آخذون من دنياهم بنصيب لا يشغلهم ما فيها عن ذكر الله ولا تتبدل أخلاقياتهم لبريق يلوح منها أو بزهو تجرهم إليه فتنها .

تلك لمحات من سيرة الأمة التي عاشت فوق تلك الأرض المحبوبة فالأرض بهم طابت ومن أجلهم تسامت في أعين الناس على مر التاريخ فلا شوق يعدل ذلك الشوق الذي يجدونه في نفوسهم إليها ولا حب يداني ذلك الحب الذي يستشعرونه في أعماقهم لمربعها إلا أن ما يجدونه في نفوسهم من شوق وما ينسكب من أعماقهم من حب إنما ينبثق ضياؤه من ذلك النور الذي قال الله فيه في محكم كتابه : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ المائدة : ١٥ .





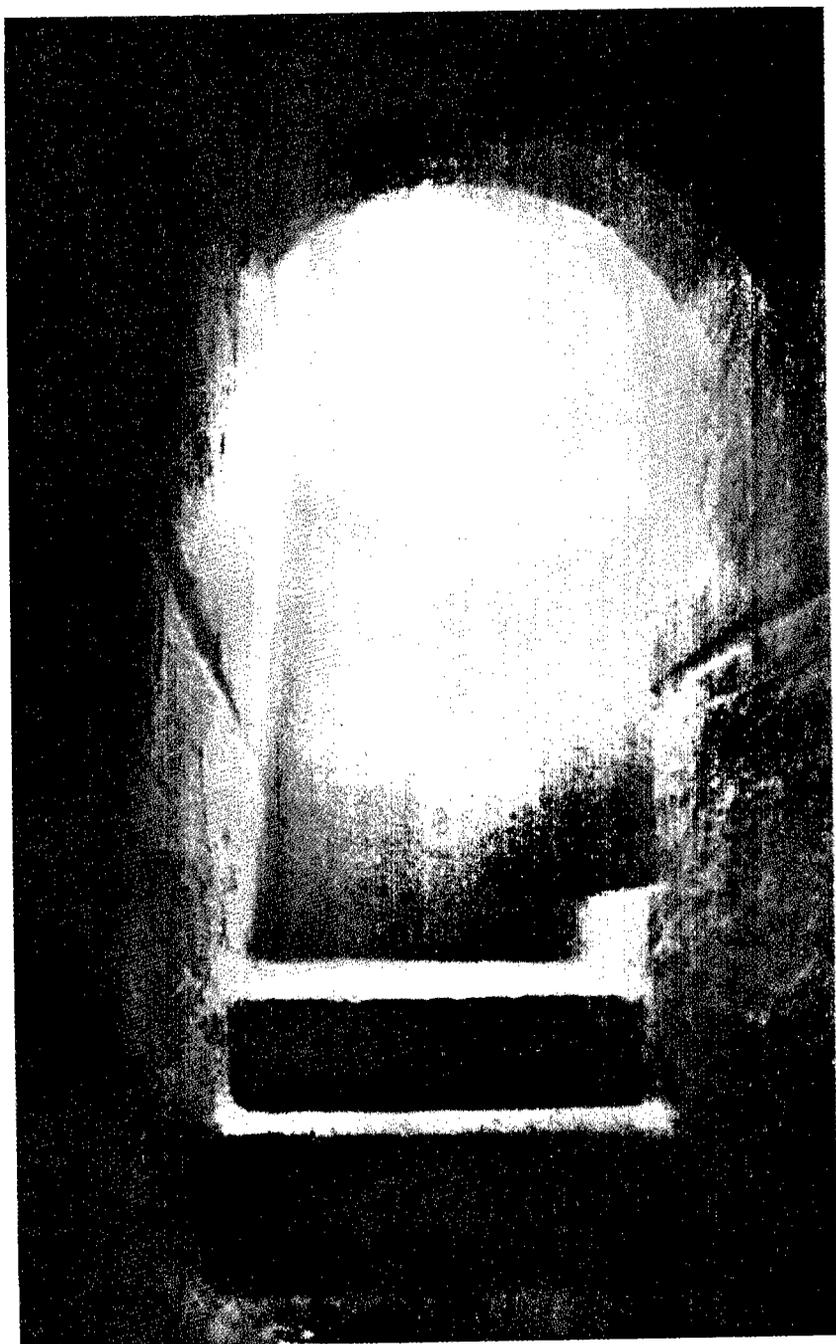
في الصباح البهي الذي تشرق أنواره في سماء البلدة الطاهرة يتوافد الناس على الحارة يطلبون حانوتاً من تلك الحوانيت التي كانت تنتشر على طرفي الطريق الرئيسي للحارة وهو حانوت صغير يلاصق جداره جدار مخبز المعلم حجازي ولا تتسع مساحته إلا لنفر محدود من الناس ولكن الناس يطيب لها أن تأتي لهذا الحانوت من أماكن متعددة فتجلس على تلك المقاعد العتيقة والتميزة بقاعدتها المصنوعة من الشريط الذي يؤتى به من سعف النخل ، ولربما اضطر بعض من يؤمون هذا الحانوت للوقوف حتى يأتي دورهم فيجلسون بين يدي الرجل الذي يتوجب عليك ألا تكثر الكلام عنده فهو مجيد لصنعتة حافظ لأسماء زبائنه . . وهل يغيب عن الذاكرة التي نشأت في الحارة أو قريباً منها اسم « العم حسن فرغلي » الذي كان يتفنن في صناعة « الفول » لا يضاهيه فيها أحد إلا رجل آخر كان يقوم حانوته في سوق البرسيم وعند مدخل شارع العينية وكان هذا الأخير يدعى عامر - رحمه الله - حانوت العم فرغلي كان من معالم الحارة البارزة يتساوى في ذلك مع مخبز المعلم حجازي ومقهى طيفور حيث الرحبة التي كانت في حقة ماضية موضعاً يبرز فيه أتباع الأغوات مواهبهم في لف العصا « القشاع » أو ما يسمى بالتمدين ، أو اللعب بالسيوف الراح من فوق ظهور الخيل ولا يكون ذلك إلا في المناسبات كالأعياد ، ومن هنا أتت

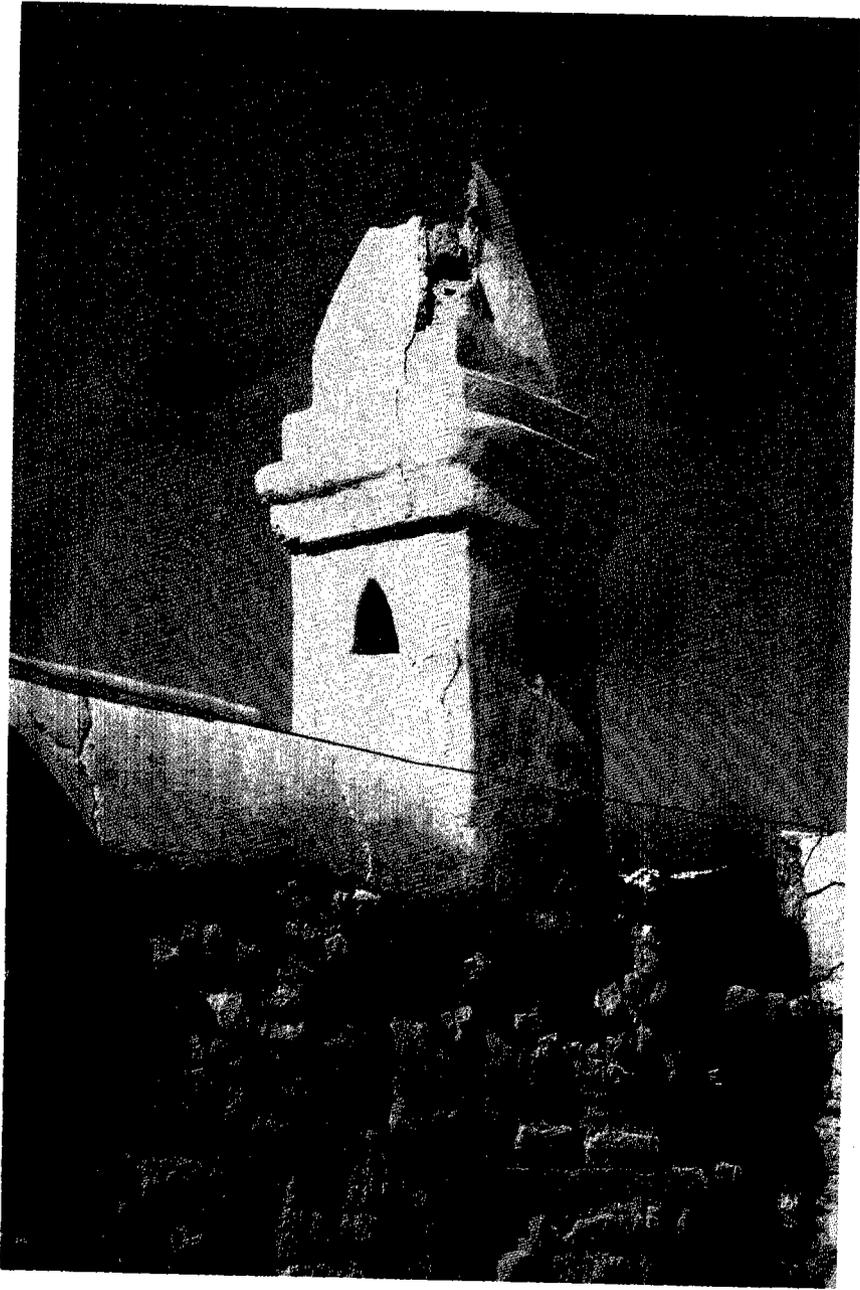
المرتبة التي يحتلها أحد الأغوات وتسمى رأس الخيالة وهي المرتبة التي تلي مرتبتي « المستسلم والنجيب » وقد عرفت من بين الأغوات شخصاً كان يشغل هذه المرتبة واسمه « شاكر » وخلفه شخص آخر فيها اسمه « محمد قرآني » وهذا الأخير كان من أكثر الأغوات نشاطاً وكانت تسند إليه مهمة فتح أبواب الحجرة المطهرة عند وصول الوفود الإسلامية للحرم الشريف وتشرفهم بالوقوف بين يدي المصطفى عليه الصلاة والسلام مسلمين ولتاريخه المشرق متذكرين ولناقبة العظيمة متمثلين . وكيف لا يحن المؤمن إلى تلك المواضع وقد حن الجذع الذي لا يعقل وركت القلوب التي كانت في جهليتها لا تلين ، وفاضت العيون التي لم تكن تعرف الدمع وانسكابه من قبل ، فهي المواضع التي تعبد فيها نبي الهدى - عليه صلوات الله وسلامه - حتى تورمت قدماءه - ونزل جبريل بين سوارها بالوحي على قلبه الممتلىء شفقة ورحمة - بأبي أنت وأمي يا سيد الرسل ، ويا إمام المتقين ، ويا قائد الغر المحجلين .

في الحارة الليل مضىء فهي تقع بين مسجد رسول الله ﷺ وبقيع « الغرقد » الذي يضم أكثر من عشرة آلاف صحابي - رضوان الله عليهم . . والنهار فيها يزيد إشراقاً إطلالة معالم مسجده الشريف وضريحه الذي حفظه الله على مر العصور والأزمان فلا يعرف في الدنيا جميعاً قبر بالتواتر المعلوم الذي لا يقبل الشك وعلى وجه التحديد والدقة كما يعرف ضريح خاتم الأنبياء والمرسلين - عليه صلوات الله وسلامه - وتلك معجزة خص الله بها هذا الدين العظيم .

فكتابه محفوظ من كل تغيير وتبديل ، وسنته مصونة من التحريف ، ومعالم مسجده يزيد ما مرور الأيام قوة وبهاء ، وهي اليوم

بما تبذله هذه الحكومة الرشيدة بتوجيه خادم الحرمين الشريفين وإمام
المسلمين ، الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود - حفظه الله - هي في
خير حلة وأكرم منزلة ، وأعظم تقديس .





بناء الطيرمة الذي كان منتشرًا في كثير من دُور الحارة

عادات كثيرة كانت تميز مجتمع البلدة الطاهرة ، وتربط أهله
بوشائج قوية من الحب والتواصل ، وإن الذاكرة - اليوم - تنقلني إلى
عقود خلت كنا نسعد فيها بحلول شهر رمضان المبارك ، الذي كان
يحيل ليالي المدينة إلى ضياء ونور ويغمرها بأجواء من الروحانية التي
تعب فيها النفس من معين الطهر والصفاء ، وكان أكثر ما يشدني في
تلك الليالي المشرقة مرأى شباب المدينة وهم يرتلون القرآن في جماعات
متعددة بين سواري الحرم الشريف وكان من أكثر الناس حرصاً على
قيام صلاة الليل في الحرم الشيخ عباس قاري الذي كانت تقوم
مدرسته في حي الشونة يخرج هذا الشيخ بجبته وعمامته متقدماً طلابه إلى
الحرم يرددون آيات القرآن بتجويد محكم وصوت ندي . وكان الشيخ
عباس يعيش حياة أقرب ما تكون إلى الزهد والكفاف ، وإنني لا أكاد
أتذكر الشيخ القاري حتى تقفر إلى ذهني صورة رجل آخر من
المجاورين ومن أهل العلم فيها وهو الشيخ إبراهيم الختني - رحمهما
الله - والذي كان يسكن في حي العريضية بالمناخة وبالقرب من مسجد
أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان هذا الأخير على صلة بشيخ
القراء في المدينة المرحوم حسن الشاعر الذي ريته وقد تجاوز المائة من
عمره وهو يسعى إلى الحرم في سكينه ووقار ليحل في وسط المسجد ،
فيلتف حوله طلاب العلم ، يرتلون القرآن بين يديه ، ولعل البعض

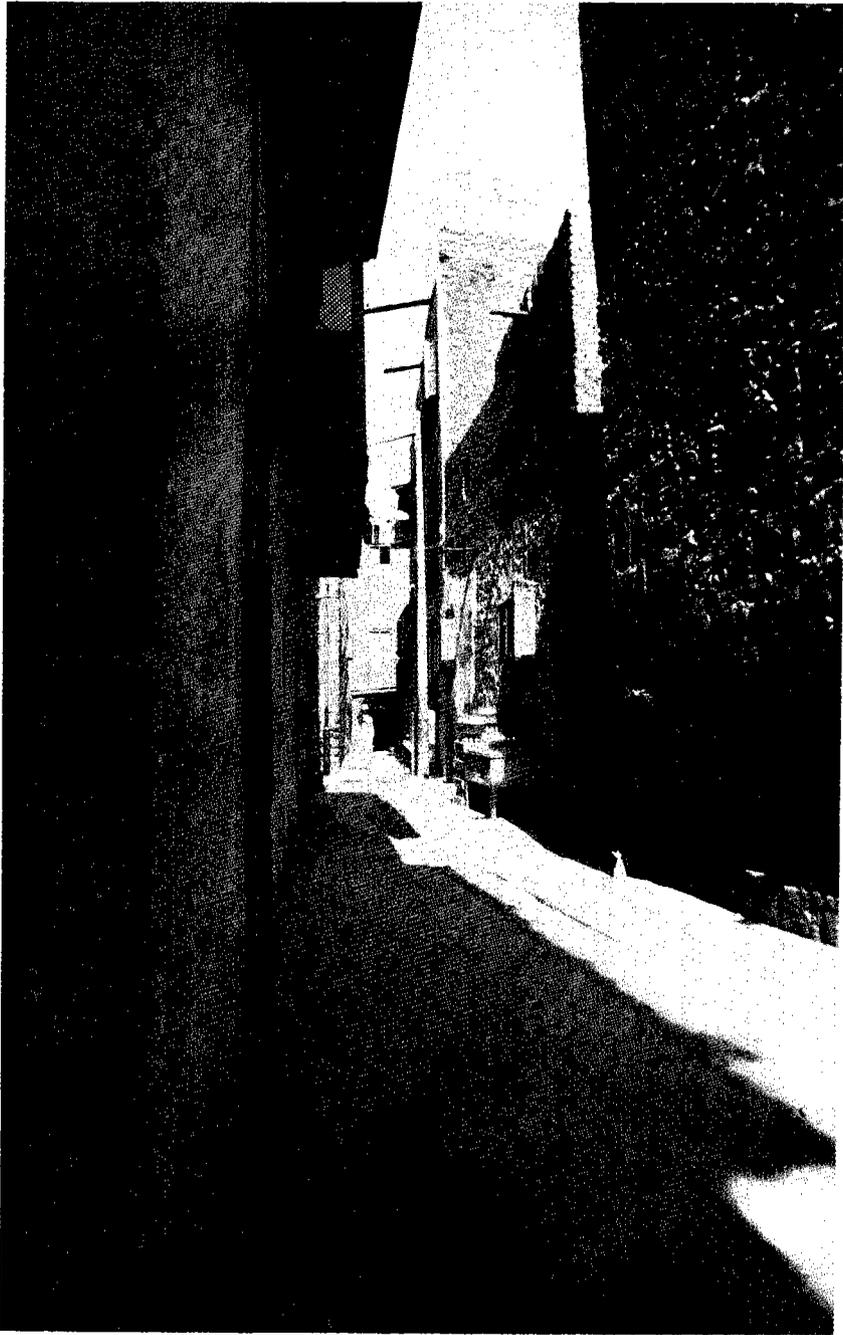
يستغرب إذا ما عرف أن الشيخ الشاعر - رحمه الله - كان يستمع وهو في تلك المرحلة المتقدمة من عمره لأكثر من قارئ يرد عليهم إذا ما أخطأوا في قراءة ويقوم ألسنتهم بما من الله عليه من علم ، فهو عارف بأصول القراءات جميعها ، وقد حدثني الشيخ جعفر فقيه - رحمه الله - أن الشيخ الشاعر كان يعقد حلقة لتدريس بعض العلوم الدينية في وسط الحرم النبوي الشريف ولن أنسى وجهاً آخر مشرقاً كان يقوم بترتيل القرآن في ليالي الشهر الكريم ، ويؤم مجموعة من الناس للصلاة بهم بعد انقضاء صلاة العشاء ، وهو الشيخ « هاشم محمد شقرون » - رحمه الله - كان حافظاً لكتاب الله ، وقريباً من نفوس الناس ، فهو يبدؤهم بالتحية ويبتسم في وجوههم إذا ما أموا داره الكريمة التي كان يزينها مجلس والده الشيخ محمد شقرون - رحمه الله - الذي كان ينتظم عدداً من أهل الفضل والعلم من بينهم الشيخ محمد علي خيمي - رحمه الله - والد صديقنا الأستاذ محمود خيمي وكان للشيخين الكريمين « الشقرون والخيمي » منزلة حميمة في قلوب أهل البلدة الطاهرة ، السنة دائمة الذكر وقلوب متعلقة بعالم الروح وشئائل تنزهت عن الصغائر وترفعت عن الدنيا وإني كنت مع جيل من لداتي الشباب ننظر إلى هذين الشيخين في شيء من الإعجاب ونسعد بمجلس يؤمانه أو مجتمع خير يسعيان إليه .

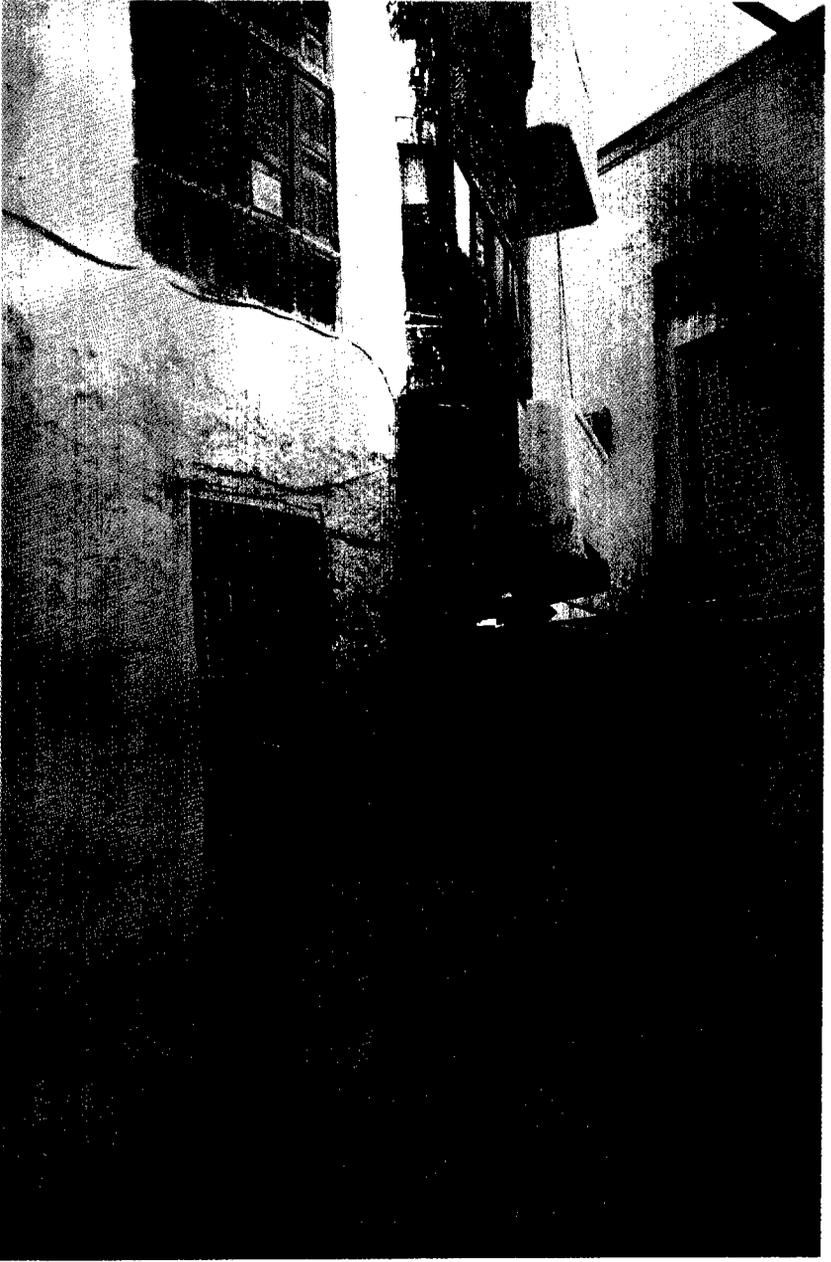
ولم تكن قراءة القرآن ومذكراته تختص بالشهر الكريم وحده ، فلقد كان الحرم يحفل بدروس القرآن طوال العام ، فعند خوخة الصديق أبي بكر - رضي الله عنه - كان ينعقد جمع مبارك فيهم المشائخ محمد علي النجار ومحمد علي السمان - رحمهما الله - وسليمان حجازي - شافاه الله - كما أن من بينهم من بارك الله في أعمارهم من أمثال الشيخ

حلّيت بن مسلم وماجد عسيلان وصدّيق ميمني وطاهر عبد الحكيم
عثمان وأخيه أحمد ، كان هذا الجمع الطيب يتوفر على قراءة كتاب الله
في الوقت الذي يفصل بين صلاتي المغرب ، والعشاء وفي الجزء الآخر
من الحرم - القريب من باب جبريل - كان الرجال الأفاضل من أمثال
حسن بخاري وأحمد عبد الجواد وجميل شيناوي والسيد عباس صقر
ليس لهم من شغل إلا مطالعة كتاب الله ، وجوه تزينت بالإيمان وقلوب
صفت بالحب ومشاعر تغذت من منابع الخير والفضيلة ..

آخر الكلام :

منازل شب فيها الدين واكتملت آياته فاستعارت نورها المدن
لأي أرض يشد الرحل راكبه يبغي المثوبة أو يشتاقه عطن
أبعد روضاتها الغنا وقتتها الخضراء يجلو بعيني مسلم وطن
ما غوطة الشام ما نهر الأيلة ما حمراء غرناطة ما مصر ما اليمن
كل المنى في رحاب المصطفى جُمِعَتْ ديناً ودنيا فما في مثلها ثمن





منف كان يصل الحارة بالجهة الجنوبية من المسج النبوي الشريف ، وتظهر في الصورة الواجهة
الخلفية لمنزل إمام الحرم فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح

يَجْلُ العيد وكل الأيام عيد في المدينة - فتزدهي نفوس القوم يخرجون جماعات من أحياء المدينة وأزقتها لأداء صلاة المشهد ، ويسلكون في ذلك سبلاً متعددة ولكنها جميعها تفضي إلى حرم المصطفى ﷺ وهم إذ يخرجون تستقبلهم تلك الساحة الكبيرة التي تفصل بين المنطقة التي كانوا يطلقون عليها «جُوة المدينة» والمناطق الأخرى التي تقوم قريباً من السور أو خارجه ، وتلك الساحة هي المكان الذي كان أهل المدينة يقصدونه إذا ما أشرقت الشمس ويأوون إليه إذا ما أظلم المساء بهدوئه ، وسكيتته ، الكبار منهم يجلسون في المراكيز يستعيدون الماضي ، الذي عاشوا أحداثه ، ويروون شيئاً من القصص الجميل الذي يذهب عن النفس كثيراً من كدر هذه الحياة ، ولا ينسون أن يعرجوا على تلك الذكريات المتصلة بحياتهم في بلاد جاوة والهند أو الشام والتي يرضون بشيء من تفاصيلها على الناشئة من شبابهم ، وإذا أرادوا أن يتوسعوا في شيء من حديثهم ذلك ، طلبوا من ناشئتهم الانصراف ولكن في لباقة وحسن أدب ، في تلك الساحة التي تظللها الأشجار وتقوم على جانبيها المقاهي ، رأيت الكبار يفرحون بالعيد كما يفرح به الصغار ، ولا يمنعهم وقارهم من أن يلهوا ساعة من الزمن لهواً بريئاً ما أحوجنا اليوم إليه في خضم هذه الحياة المادية وهي سمة من سمات العصر بأكمله والتي لا نشعر فيها إلا باللهاث الذي

لا تنتهي مطالبه ، ولا نعرف له نهاية نقف بنفوسنا عندها .

رأيتهم يمارسون رياضة « القشاع » يمسكون بالعصي في شجاعة ويلوحون بها في محبة وكان القشاع في الماضي وسلة من وسائل الدفاع عن النفس في الحقب التي كان ينعدم فيها الأمن على نفس وخصوصاً إذا ما حل المساء واعتصم الناس بدورهم وجلسوا يستمعون إلى حكايات الجدّات وهي حكايات تقوم في بنائها القصصي على كثير من الأساطير ولكنها كانت الوسيلة الوحيدة للتسلية ، وكان الجَمْعُ يتحلّق حول المرأة الكبيرة التي تمسك بالإبرة والسِّيم وتفتن في صنع الكوافي المزركشة فهي تارة تحفض الرأس لتنظر إلى موضع الإبرة وأخرى ترفعه لتكمل ما انقطع من حكايتها . الجميع يلتزمون الصمت ولا يجروون على السؤال . . فللجدّات حسٌّ مرهف ومزاج تعتوره الحدّة بين الحين والآخر ، تحلق العائلة حول الجدة يذكرني الآن بتحلق الصغار حول جهاز التلفزيون ولكن حديث الجدة مع طرفته وعذوبته ، له أمد محدود ينقضي عنده ، ونحن اليوم كثيراً ما نسيء عن عمد أو غير عمد استخدام هذه الوسيلة الحديثة للتسلية ، فنرى أبصار أبنائنا مشدودة إليها لساعات طويلة وعقولهم مرتبطة بها ، فرقاً بأبصار لم تر من الحياة بعد شيئاً كثيراً وحفاظاً على عقول يجب أن تأخذ من أوقات هونها بمقدار حتى لا يضيع ما تعلمته في أوقات الجد والعمل .

لم يكن القشاع ذلك الشيء الوحيد الذي يشدني إلى ساحة المناخة ولكن وجوه الرجال كانت تستهويني ، ملابسهم ناصعة البيضا - كوافيهم شاخحة كشموخ جباههم ، وعمائمهم الصّفراء تيجان فوق رؤوسهم يقيمونها في مقامات الفرح وينزلونها في مقامات الحزن ولحاهم التي يقتدى فيها بسنة المصطفى ﷺ هُذَّبَتْ أطرافها ويفوحُ الشّدَى الطيب

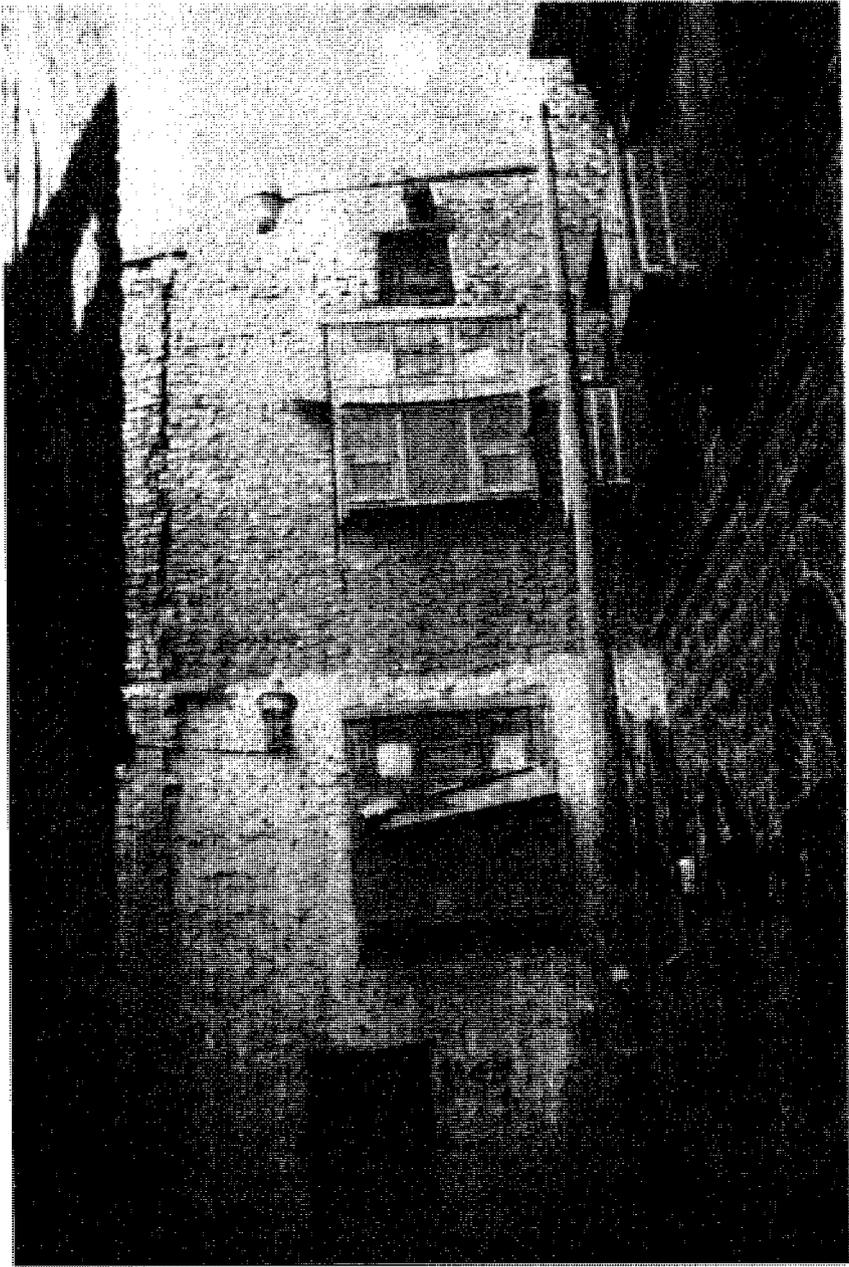
منها يقربون الصغير في مجالسهم ويعطفون على ذوي الحاجات إذا ما قصدوهم ويحفظون ألسنتهم عن الخوض في أنساب الناس وخصوصياتهم ، وإذا ما انفض المجلس وتفرق الجمع ختموا حديثهم باستغفار وبالصلاة على سيد ولد عدنان - عليه صلاة الله وسلامه - ما أطيب ذكراهم ، وما أجمل سيرهم ولكنني كثيراً ما أمر على الديار التي كانت تشهد حديثهم وأوقات سمرهم ، وأنا أردد قول شاعر المدينة سعد الدين بن عبد الجليل بزاده - رحمه الله - في قصيدته التي يتشوق فيها إلى المدينة بعد خروجه إلى الشام أثناء أحداث الحرب العالمية الأولى :

يا للهوى لسويغات مضت بقبا وللعوالي بقلبي وخز مران
 قربان روحي أفديه لرؤيتها ياليت شعري هل أحظى بقربان
 وأحرّ قلبي على وادي العقيق فكم أجرته عيناى منظوماً بعقيان
 لذلك السّيح ساحت عبرتي وغدت تسقي النّقا ولكم سالت بيطحان؟
 يا حادي العيس قف، هذا البقيع وذا سلّع، فان به روحي وربحاني

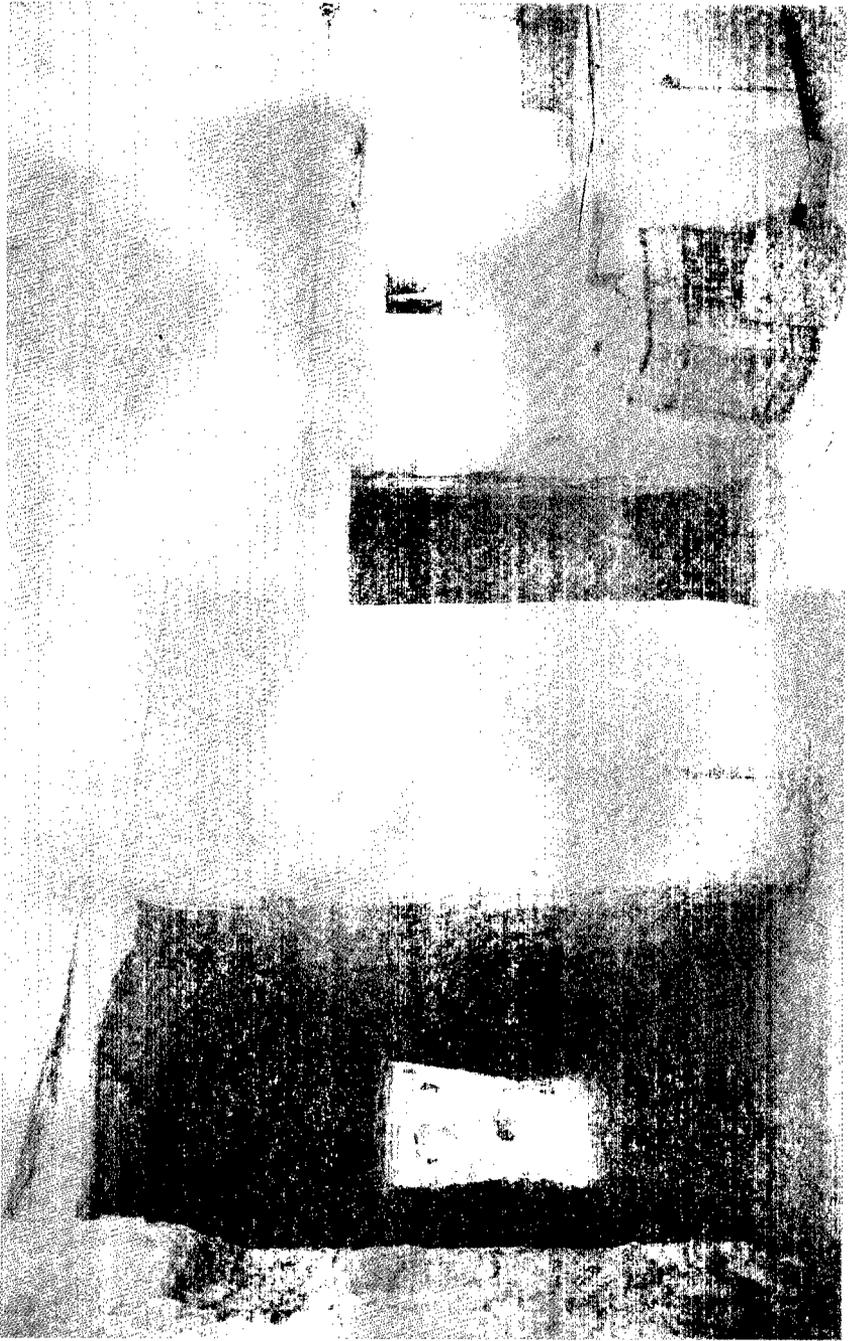
خاتمة

الأديب الفاضل والصدّيق الكريم الأستاذ عبد الرحمن الأنصاري ، لقد وقفت كثيراً عند كتاباتك القيمة عن المجلس الثقافية ، وعن حديثك الممتع عن رجل أحبه الكبار والصغار في بلد المصطفى ﷺ الشيخ عبد الحميد عباس - رحمه الله - ولعل الفرصة تواتيك فتخص بالحديث رجالاً عرفتهم عن قرب ، ووقفت على كثير من المآثر في حياتهم ، فلكم رأيته تتردد على مجلس يضم صفوة من

الرجال من أمثال أبي هشام السيد أديب صقر ، والسيد علي كماخي
والد الدكتور الفاضل خالد كماخي والشيخ عارف برادة - رحمهم الله
وأسكنهم فسيح جناته - وأسأل الله أن يُبارك حليّتنا في بقية أهل
العلم والقرآن صاحب الدار العامرة في حي قباء الشيخ الفاضل
حليت بن مسلم والد الشاعر المبدع الأستاذ عبد المحسن بن حليت
فهو جدير بكل حب وتقدير وثناء .



الطرف الآخر من واجهة رباط الميمن



المناخة بمقاهيها وبعربات « الكرو » التي ينطلق بها أصحابها في أرجاء المدينة بحثاً عن الرزق ، فهي تحمل الناس وأشياءهم من مكان إلى آخر ، ولعل أذكر نوعاً من العربات كان خاصاً بحفلات الزواج ، وأظن من كنا نطلق عليهم اسم « الدقاقات » في المدينة - وهي الفرقة المختصة بإحياء حفلات الزفاف - ضرباً بالدف وإنشاداً للكلمة - ، هذه الفرقة كانت تستقل هذا النوع الخاص من العربات والمتميز بوجود الستائر على أطرافه ، فكل شيء في مجتمع المدينة ينزع إلى الحشمة والتمشي مع آداب الإسلام .

تنطلق العربات مع طلوع الشمس ثم يستقر بها المقام في آخره في مكان يدعى « الحلة » وأنت إذا ما مررت بهذا المكان بعد أن يحل المساء وتتوقف الحياة عن حركتها المألوفة فسوف تجد أصحاب هذه العربات ما بين مفترش للأرض أو مستلق على مراكز من الخشب يحدق ببصره في سماء المدينة الصافية ، وما أجمل تلك السماء التي أظلت خير من أنجبت النساء ، وأكرم من مشى على الثرى - عليه صلوات الله وسلامه - ، وهم بعد زمن من إخلادهم للراحة يعود النشاط إليهم من جديد فتراهم قد تناثروا في تلك المقاهي جماعات يحتسون أقداحاً من الشاي ويأكلون شيئاً من الطعام ، وكان الطعام المفضل في « الحلة » هو « الكبدة » يصنعها رجل متخصص اسمه « العزي » ولم يكن الذين يؤمون « مبسط » العزي من أهل الحلة فقط ولكن جموعاً كثيرة من أهل المدينة تتوجه إلى « المناخة » صباحاً أو ليلاً لتتناول هذه

الوجبة الشهية التي عرفت أيضاً في مدن أخرى مثل مكة المكرمة، وما أكثر ما ريت أهل البلد الطاهر وهم يسرعون الخطى مع مطلع كل يوم إلى سوق الليل فهناك حانوت «الكنو» الذي يقوم على مقربة من مقهى المريعياني الشهير .

وفي الحلة يجلس العم « شلبي بيطار» يصلح « حدوة » الخيل والبغال ، وليس بعيداً عنه يبدو رجل يميل لونه إلى البياض ، ولكن أشعة الشمس المحرقة قد أحالت سحته إلى شيء من السمرة ، يشد الحزام في وسطه وينتقل ما بين مقهى « النقاوي » ومربط الخيل ومجموعة من القَطَط تسير خلفه فهو يقوم بإطعامها ونخصها برعايته ، ولكنه على كل حال لا يبلغ في عنايته ذلك المستوى الذي بلغه رجل من المهاجرين الهنود فلقد كان يسكن في بيت في « ذروان » تجاوره فيه القَطَط ، وإذت سافر في شوارع المدينة متكئاً على عصاه رأيت هذه القَطَط تتبع خطاه فهي لا تقوى على فراقه ولا تسعى للانفصال عنه ، أعود إلى رجل المناخة الذي لا أعرف إلا اليسير عن شخصيته ، فأنا لا أعلم إذا ما كان شيخاً لأهل الحلة ، أو أنه بحكم السن يرجع إليه الفتيان من أهل الحرفة يستفتونه في شؤونهم ويرجعون إليه في قضاياهم ، وعندما استعيد الآن صورته أجده في الحقة التي عرفته فيها قد بلغ مرحلة متقدمة من العمر ، ويظهر ذلك من انحناء ظهره وبروز الشيب في عارضيه ، ومع أن أهل الحارة يفضلون دائماً - حلاقة الرأس - إلا أن «الكوفية» البلدي كانت كفيلاً بتغطية الجزء الأكبر منه ، أما هذا الرجل الذي تحدثت عنه ، واختفى فجأة من المناخة وسمعت بعد ذلك أنه ذهب إلى الرياض وتوفي بها ، فهو العم «محمود سحلي» - رحمه الله - .

وإذا كان «السحلي» - رحمه الله - واحداً من تلك الشخصيات التي كانت تشكل ملامح الحياة في ذلك الجزء الهام من المدينة ، فلقد كان هناك

رجل آخر يتميز بالابتسامة التي ترتسم على ملامح وجهه الأسمر ومع أنه يعمل « غندرياً » إلا أنه كان دائم العناية بملابسه ، الحزمة في وسطه ، والعصى بين يديه ، والشباب في « الحلة » ينادونه بالمعلم « كردش » وأذكر أن شاباً كان يسير في المناخة فتحرّش به أحد من هؤلاء الشباب ، فذهب إليه يشكو طيش هذا الشاب وتعيده عليه ، رأيت « كردش » يقوم من مركزه ، يوبّخ المعتدي ، ويطيّب خاطر الشاب الغريب ، وهكذا كانت سمات أهل الحارة نخوة وشهامة ، ووقوفاً إلى جانب الحق حتى ولو كان المعتدي من ذوي القربى .

مررت بعد غربة دامت سنين عن المدينة على حي المناخة ورأيت رجلاً كنت أعرفه فيما مضى شديد البأس مكتمل الصحة ، رأيته وقد أخنى عليه الدهر ، فضعف منه البصر ، وذوى منه الجسد ، فسلمت عليه لأسأله عن أهل المناخة الذين اختفوا ، واختفت معهم بعض ملامح الحياة الشعبية والتي كانت جزءاً من المجتمع في الحقبة الماضية ، قال لي يا بني : مات أكثرهم ، وهجر البعض الآخر مناخته إلى نواح أخرى ، ولكنها ظلت حلماً جميلاً تعيشه مشاعرهم وأحاسيسهم ، وأنشودة عذبة ترددها ألسنتهم ، قلت له : تلك - يا عم - سنة الحياة ، وطبيعة الدار الفانية ، ولكننا بفطرتنا نحن دوماً إلى ذلك الماضي بكل إيجابياته وسلبياته ، تتوق إليه منا النفوس ، ونذرف على تصرم أيامه الدموع ، ولا أدري هل نحن بهذا الشعور نبكي أنفسنا ، أم نبكي الزمن لذاته ، أم نبكيهما معاً .

آخر الكلام :

وفؤاد كلما عاتبته في مدى الهجران يبغني تعبي !
لا أراه الدهر إلا لاهياً في تماديه ، فقد برح بي

يا قرين السوء ما هذا الصبا؟
وشبابي بان عني فمضى
ما أرجى بعده إلا الفنا
ويح نفسي لا أراها أبداً
نَفْسِي لا كنت ولا كان الهوى

فني العمر كذا في اللعب
قبل أن أقضيَ منه أربي
ضيق الشيب على مطلبي
في جميل ، لا ولا في أدب
راقبي المولى ، خافي ، وارهبي





واستيقظت ذات يوم على وقع أصوات غريبة لم أألفها من قبل ،
 حداء قرأت عنه في الأسفار ، ونشيد مثل ذاك الذي تحدثت عنه كتب
 السيرة ، ولو أنني لم أسكن في « حي العنبرية » مدخل المدينة المعروف
 لما بلغت إلى سمعي تلك الأصوات ولم تتفاعل أحاسيسي مع تلك
 الأهازيج ، خرجت من داري يحدوني تطلع الناشئة من الشباب
 وفضولهم ، فإذا النوق والبهائم قادمة من البلد الحرام وقد ترجل من
 فوق ظهورها الفتيان الذين يسيرونا هوينى ولا يتعجلون الخطى ،
 ولكنهم ما أن بلغوا شارع العينية حتى امتطوها ، وساروا بها إلى
 نهايته ، يرددون كلاماً لا أحفظه ، ثم يعودون أدراجهم إلى « المناخة »
 يقيم بعضهم في « الحلة » والبعض الآخر في زقاق « الطيار » إلا أن
 النوق انفصلت عن مسيرة الركب ، وهبطت الدرجات التي تسلمك
 إلى الساحة التي كانت تمتد بين بابي السلام والرحمة ، ثم أناخت غير
 بعيد عن الباب الأول ، ولأول مرة أرى النوق تمرغ خديها في تلك
 الرحبة ، كل شيء في هذا الوجود يحن إلى سيد الوجود وصفوة الخلق
 محمد بن عبد الله - عليه صلوات الله وسلامه - ألم يحن إليه الجذع ،
 الذي كان يتكىء عليه أثناء خطبت في المسجد ، واهتز جبل أحد
 عندما ثبتت أقدامه الشريفة عليه .

كنت مغرماً برؤية أشكال هذه الفئة من الناس التي تزور المدينة

في كل عام ، تشد الرحال إل المسجد النبوي الشريف ، وتقف بين يدي المصطفى ﷺ وصحابته الكرام - رضوان الله عليهم - مسلمة ، وكان بعضهم من احترامه للبلدة الطاهرة لا ينتعل فيها حذاء وكنت أتعجب كيف بإمكانهم تحمل أشعة الشمس المحرقة ، وخصوصاً في أيام تبلغ فيها الحرارة شدتها ، ولكنني عرفت فيما بعد أن « أبناء الحارة » قد تعودوا على السير على الأقدام كما تعودوا على شطف العيش وقسوته .

كان الركب ينتظم مجموعات كبيرة من أهل الحارة في مكة ولكنني أعتقد أن أحياء مثل المسفلة والنقا ، والشعب ، والشبيكة ، كانت تشكل الغالبية من أفرادها ، وكان أهل مكة يخرجون لتوديعه في الوادي ، ولعل ركباً كان يخرج من المدينة في الماضي وقبل توفر وسائل المواصلات الحديثة وسمعت أن رجلاً من سكان « العنبرية » اسمه حمزة لبان « كان شيخاً من مشايخ هذا الركب ، ولعل صديقنا الدكتور « يوسف بن أحمد حوالة » يُحدثنا عن ركب المدينة فهو من أهل الساحة وأسرته الكريمة في الذروة من وجهاتها ، ولا أنس أصهارهم - آل الملا - فلقد كان المرحوم عبد القادر - ملا - شيخاً لهذا الحي المشهور في البلدة الطاهرة ، وفي الحقبة التي كان فيها معتوق بري - رحمه الله - شيخاً لحي المناخة .

كان لأهل الركب أصدقاؤهم بين الحلة وزقاق الطيار وقهوة « الفار » قرب باب الكومة - وكان هؤلاء الأصدقاء من المدنيين يفتحون دورهم لإخوانهم المكيين ، ويرحبون بهم أجمل ترحيب ، وإنك إذا خرجت ليلاً إلى المناخة بعد انقضاء صلاة المغرب أو العشاء ، فسوف تجد القوم ينتشرون في المراكيز يتبادلون أحاديث.

الصفاء وينشدون بعضاً من أدوار « الصَّهبة » التي أقرب ما تكون إلى ما يعرف بالموشحات الأندلسية ولكل دور طريقة في الإنشاد ، وهو إنشاد يعتمد على حركة « كف اليد » ولا يصاحبه شيء آخر ، وإن كنت لا أعلم لماذا يسمونه بالمصري ويسمون نوعاً آخر من الإنشاد « البياني » ، ولعل البعض ممن تعمقوا في معرفة هذه الموشحات يفصل القول لنا في ذلك ، وهذا يدخل في باب تاريخ الأدب فالدكتور « محمد عبده غانم » نال شهادة الدكتوراه من معهد الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندن عن أطروحته في « شعر الغناء الصنعاني » والتي جاءت في حوالي ٤٥٠ صفحة وطبعت مرات عديدة كان آخرها في بيروت في عام ١٩٨٣ م ، وما خصه الدكتور غانم بدراسته وبحثه قريب من الموشحات التي تكاد تندثر لدينا ، فهي نتاج عصر قد مضى ولكنني أرى أنه لا بد من التوقف عندها ومعرفة جذورها من حيث نسبة الأشعار التي تنشد إلى قائلها ، ومن حيث أدائها وهي بلا شك تتصل برباط قوى بذلك الإنشاد الذي استقبل به الأنصار نبي الهدى عليه صلوات الله وسلامه عند هجرته إلى المدينة :

طلع	البدر	علينا	من	ثنيات	الوداع
وجب	الشكر	علينا	ما	دعا	الله
				داع	

آخر الكلام :

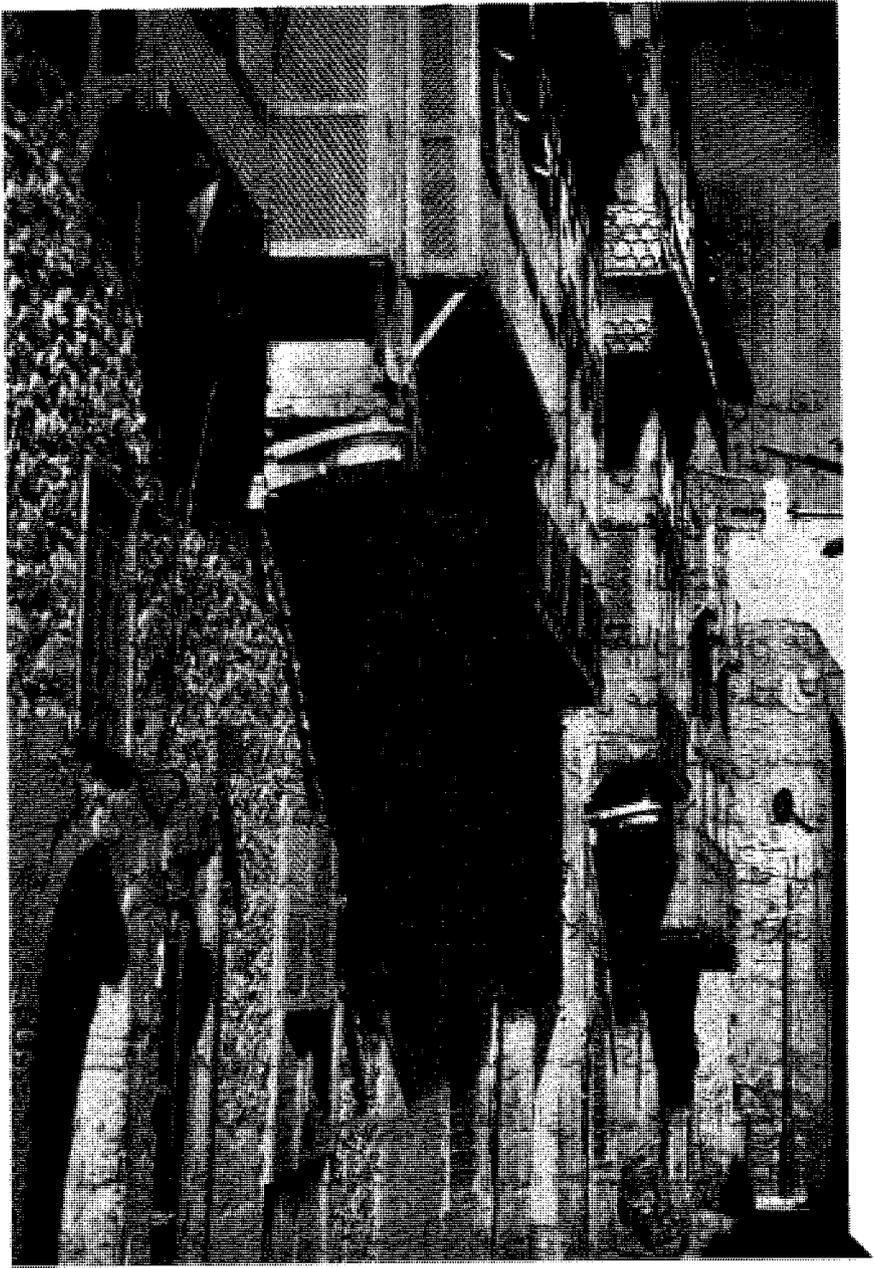
وإذا المطي بنا بلغن محمداً .. فظهورهن على الرجال حرام ..





كنت أعرف من حي العنبرية والذي سبق أن ذكرت في حلقة سابقة أن اسمه مشتق من اسم شخص كان يدعى « عنبر أغا » ، أعرف من هذا الحي جزأه المطل على « المسيل » وهو مجرى لسيل أبي جيدة ، ويقوم على طرفي الشارع الموصل إلى المناخة القائمة أمام ما كان يعرف عند أهل المدينة بـ « الخان » - سوق الخضار- ، يقوم على طرفي هذا الشارع مسجد يسمى باسم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وبناء قديم ترتفع من وسطه منارة لمسجد يسمى باسم سيدنا - بلال - رضي الله عنه - ، وما هذا النبا القديم إلا مقر لإمارة المدينة ، ولعلي في أثناء مروري بالقرب من هذا البناء قد دلفت إليه يوماً فرأيت ساحة ينبت فيها شيء من الشجر لا أتذكر هل هو النخل أو السُّدر؟ .

ويسامت هذا البناء دار نحتت من الحجر كأحسن ما يكون النحت ، فلقد عرفت المدينة بوجود الفئة التي تقيم هذا النوع من البناء المتناسق الجميل ، وهي فئة « القرارية » وحدثني الشيخ عبد الله بصنوي - رحمه الله - أن دار الجنيد المشهورة في حي حارة الباب بمكة المكرمة والتي آلت ملكيتها إلى معالي الأستاذ أحمد زكي يياني ، هي من تشييد أهل هذه الحرفة في المدينة ، أعود إلى الدار المنحوتة من الحجر على مدخل الباب الجديد - فأتذكر أن قبة صغيرة مضيئة كانت تقوم



كانت الرّواسين الخشبية تزين كثيراً من واجهات دور المدينة المنورة ، ومن بينها دور حارة الأعوات

فوق هذه الدار ، ولم تكن هذه الدار إلا دار آل الخريجي الأسرة المعروفة بالمدينة والتي برز من بينها عدد من الرجال الذين ساهموا بجهودهم في أعمال الخير والبناء الاجتماعي والفكري .

في الليل تتهادى إلى سمعي أصوات الحيوانات القابعة في المسيل ، وفي الصباح أستيقظ على حداء « السقا » يأتي للماء « زفته » المصنوعة من إناءين من الصفيح يصل بينهما عود من الخشب المتين ، يأتي هؤلاء السقا مع الفجر إلى منبع الماء الذي كان يقوم على مرمى خطوات من دارنا فأنظر إليه من ثقوب « الروشان » أو ما يعرف بالمشربيات ، ومعظم الدور في المدينة كان يزين واجهتها هذا النوع من النوافذ ، وهو بالإضافة إلى ما يكشف عنه من حس وذوق فني عند القائمين على صنعته فهو له دلالة الاجتماعية المتمثلة في إعطاء أهل المنزل إمكانية النظر إلى الشارع أو الحارة دون أن يتمكن المار في الشارع من معرفة خصوصيات الدور مع أن الوضع الاجتماعي كله كان يسير في منحى واحد وهو الحفاظ على التقاليد الإسلامية من رعاية للحرمان وحفظ لحقوق الجار وصون لوحدة الحي الذي يشكل جزءاً من المجتمع الأم .

ينزل المطر تمتلئ أبار البيوت المحيطة بالسيل بالماء ، وتمتلئ بمائها تلك « الخرز » المنتشرة في مجرى السيل نفسه ، يخرج الصغار من الأحواش المتقاربة وأكبرها حوشاً « عميرة » و « مناع » وأصغرها حوش « السيد أحمد » الذي كان يقوم في بدايته دارنا ودار الأفندي « ناجي » أحد العاملين السابقين في « الخالدية » المركز الرئيسي للشرطة بالمناخة يخرجون إلى شجرة النبق الممتدة الجذور في أرض مسجد سيدنا عمر - رضي الله عنه وأرضاه - وقد اخضرت منها الغصون ومجمعون في براءة

طفولية ما تساقط من حبات النبق . . لا أعلم لماذا استقرت في ذهني صورة أشجار النبق والسدر التي كانت تنتشر في نواح مختلفة من المدينة ، من بينها المناخة وسوق الحياطة ؟ فلا أتذكر المدينة القديمة إلا وأتذكر معها هذا النوع من الشجر ، ولا أعلم لماذا لا تتخذ بلدية المدينة ممثلة في أمينها المهندس عبد العزيز بن عبد الرحمن الحصين خطوة رائدة في تظليل شوارع المدينة بأشجار النخيل والسدر .

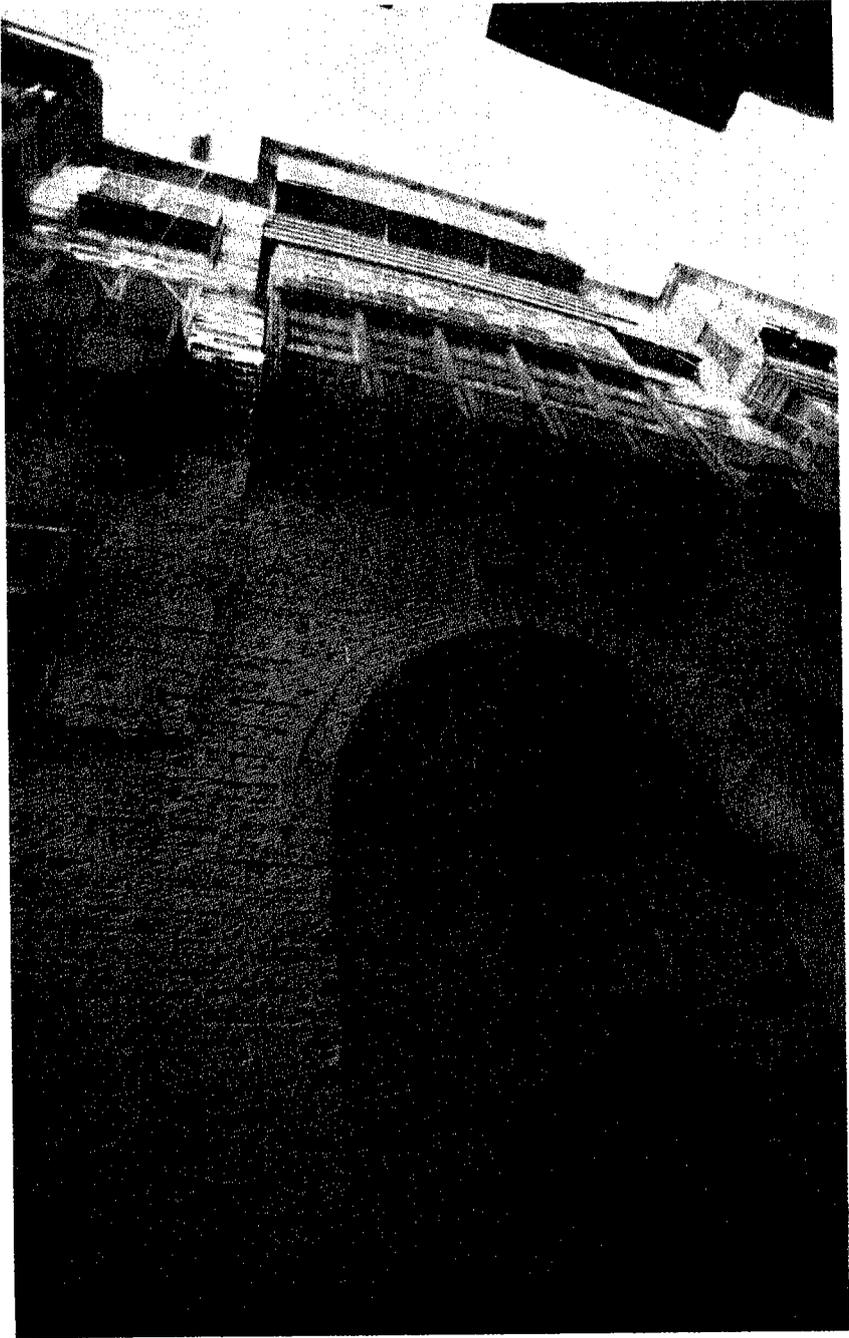
إذا نزل المطر وكثيراً ما كان ينزل تتجمع المياه وتسيل السيول ، سيل عروة ، وادي العقيق ، والعاقول ، وسيل أبي جيدة ، وادي بطحان ، والأخير هذا كنت أشهد موسمه بحكم موقع دارنا ، يأتي الناس من جميع أنحاء المدينة ، يتجمعون على أطراف الوادي وبعضهم بحكم صلته بأهل المنازل المطلة على مجرى السيل يتخذون من «الرواشين» مقعداً لهم لينظروا إلى المياه وهي تنحدر من قوة عجيبة من قربان إلى منطقة «السيح» وما ورائها .

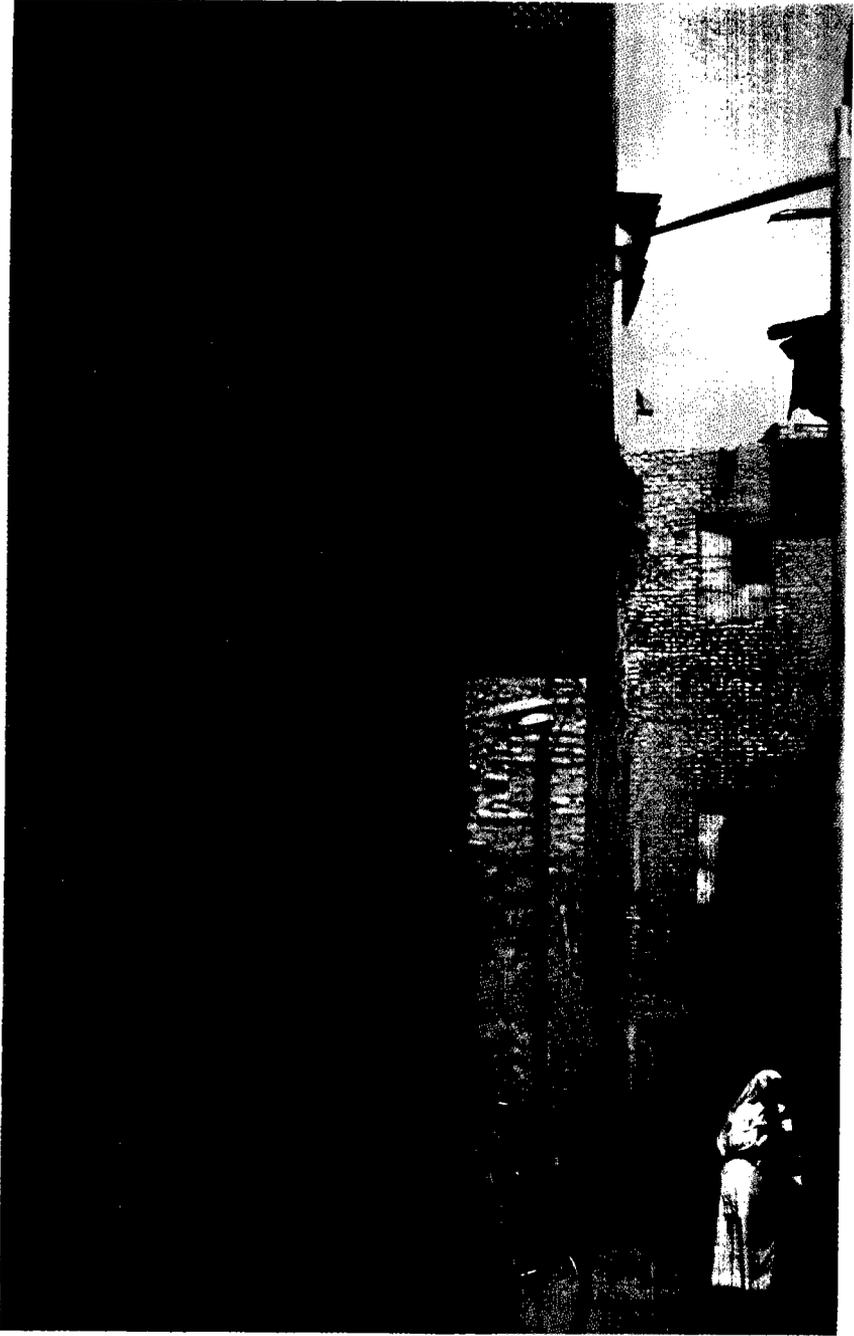
الإنسان في العصر الحديث أقام السدود ليستفيد من المياه ولكنه دفع في مقابل ذلك ضريبة باهظة وهي فقدانه لرؤية مظهر من مظاهر الطبيعة وكثيراً ما تتغذى المشاعر وتتطهر النفوس على رؤية مثل هذه المظاهر فمن لي بحياة لم تفسدها ماديات العصر ويشوهها تدخل الإنسان فيما يعد من خصوصياتها ، يبدو أن ذلك من المستحيلات ولكنه يبقى حلماً وما أجمل الأحلام بعيداً عن دنيا الواقع .

آخر الكلام :

أيها المشوق هنيئاً ما أنالوك من لذيذ التلاقي
قل لعينيك تهملان سروراً طالما أسعفاك يوم الفراق

واجمع الوجد والسرور ابتهاجاً
ومر العين أن تفيض انهمالاً
هذه دراهم وأنت محب
وجميع الأشجان والأشواق
وتوالى بدمعها المهراق
ما بقاء الدموع في الآماق





لا زلت في « العنبرية » فيها نشأت ، أصيخ لصوت الأذان ، يأتي ندياً من منائر الحرم كنت أسأل عن أصوات « الرؤساء » نسبة إلى المنارة الرئيسية بالمسجد النبوي فعرفت البعض وجهلت البعض الآخر ، وإذا كان وقت الغروب هرعت إلى الدار ، ولكن الشباب من أبناء الحارة وخصوصاً أهل حوش « عميرة » يخرجون ليلاً ويتجمعون في الساحة الممتدة بين دار « أمين شيخ » و « الزهدي » أسمع أصواتهم ..

وفي كثير من الأحيان يُشجيني ما يرددونه من زومال ولعلي يا صديقي نسيت أشياء كثيرة ولكنني لن أنسى ما حييت التهليل في الطوف وتزهد الحادي في مقدمة الركب وصوت المنشد في المجلس ، الصوت والنغم أول ما يتبينه الناشئة في البلد الطاهر ، ولهذا لم يكن غريباً أن يكثر قول الشعر في بيئة المدينة .

في دار المرحوم « عبد الله أفندي » القائمة خلف مسجد سيدنا عمر - رضي الله عنه - والمطلّة على واجهتين أحدهما مجرى السيل من جهة قباء ، والأخرى على الباب الجديد وربما كانت مقابلة لدار آل العشري ، في تلك الدار شاهدت السيدين حسين وياسين إدريس هاشم - رحمهما الله - يصيخان السمع لرجل أكبر منهما سناً عرف بحلاوة الصوت وترتيل القرآن إنه الشيخ « صقر » رحمه الله .

الناس تطلب من السيدين أن ينشداً وهما يلذ لهما سماع الترتيل

والإنشاد من ابن حَيٍّ « الجُبُور » رحمهم الله جميعاً .

في العيد يخرج أهل الحارة جماعات يدخلون البيوت « يعايد » الناس بعضهم البعض ، الوجوه منهم مشرقة ، القلوب بين صدورهم بيضاء نقية ، العمام فوق رؤوسهم شاخحة ، اليوم يا صديقي ، الأبواب في العيد مقفلة وأصحابها يغطون في نوم عميق ، والتليفون أقرب السبل للتهنئة والسؤال معاً .

في العصر تفتح أبواب الدور وقليلاً ما رأيتها موصدة في تلك الحقبة ، وصاحب الدار يجلس في المقعد وهو أول ما يصادفك عند دخولك من الباب الرئيسي للمنزل ، وبينما كنت جالساً ذات مرة وأنا في سن الطفولة مع والدي - أمد الله في عمره - فإذا برجل يسلم علينا ثم يدخل ، أكاد أتصور ملامحه - الآن - أسمر البشرة ولكنه جميل المحيا يشد حزاماً في وسطه ، عرفت من والدي أنه شيخ الحي - إبراهيم عامودي رحمه الله - كان العمدة يتفقد أهل الحارة ويعينهم على حل مشاكلهم ، لم أر الشيخ العامودي بعد تلك المرة ، ولكن جنازة خرجت ذات يوم في مطلع الثمانينات الهجرية من باب قباء فإذا والدي ينهض من مقعده يقول : « هذه جنازة الشيخ العامودي ، دعونا نشيع هذا الرجل إلى مثواه الأخير » .

لم يكن شيخ الحارة وحده الذي يتفقد الناس ، ولكن الناس في الحي كانوا يبدون اهتماماً كبيراً بشأن جيرانهم ، في زقاق السيد أحمد سمعتهم يتحدثون كيف أن الرجال كانوا يغيبون عن دورهم لشؤون الرزق ولكنهم لا يحملون همّاً من جهة الأهل والأبناء .

في الصباح الباكر تخرج سيدة الدار متحجبة تضع الزنبيل وفي

وسطه شيء من النقود ، فلا تطلع الشمس إلا وطعام الإفطار وقطعة اللحم قد بلغت أهل الدار ، في الزقاق المذكور كان المرحوم « عبد الهادي حجاج » خير من يقوم بهذه المهمة ، وهذا الواجب الإنساني .

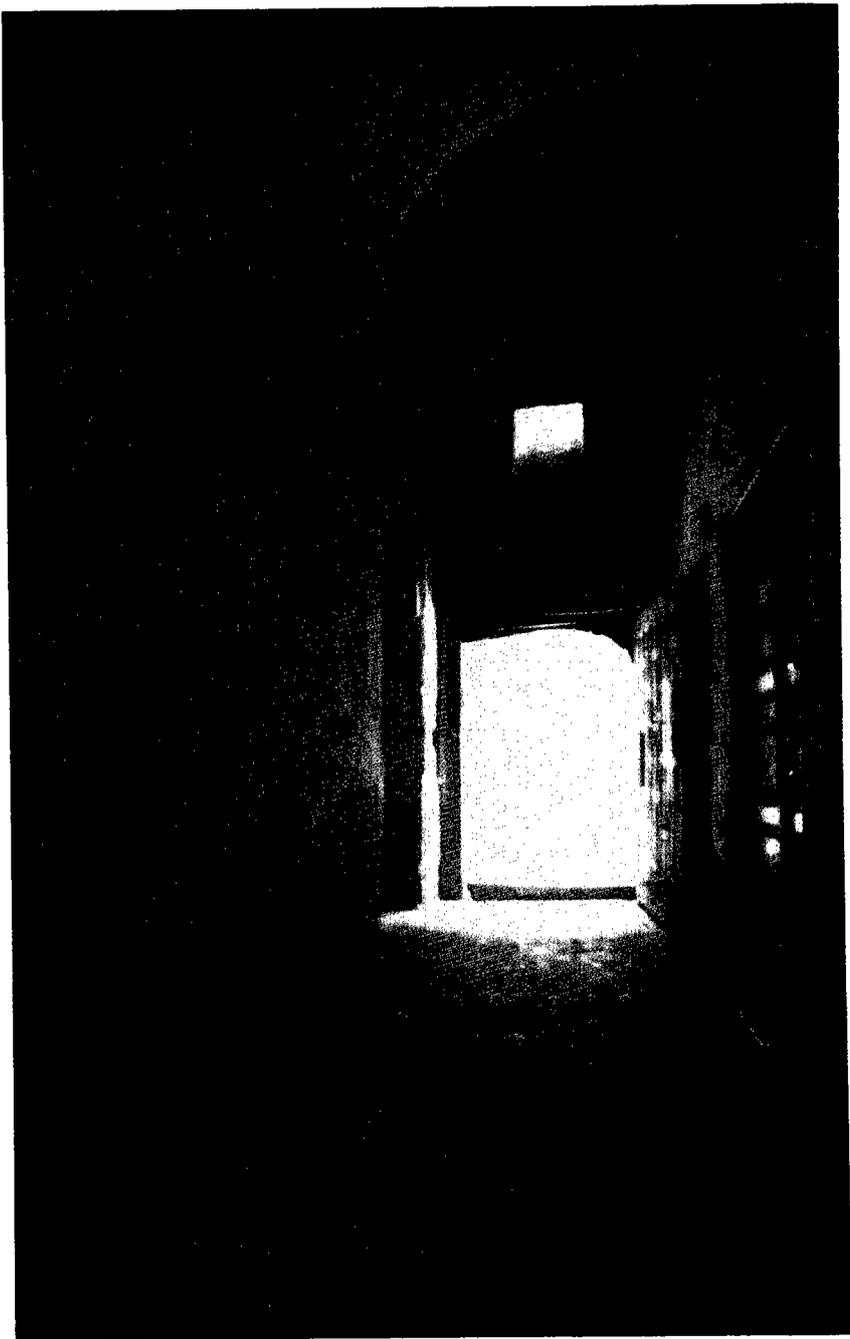
في ليالي الصيف نصعد إلى سطح الدار طلباً لنسيمات الهواء ، العليل وما أجمل نسيم قباء ! ولكن الجيران لا ينقطعون عن بعضهم البعض حتى وإن صعدوا إلى سطح دورهم ، جارتنا السيدة الكريمة من آل البكري كانت تدلي زميلاً صغيراً من سطح دارهم التي كانت مرتفعة بعض الشيء عن دارنا ، نفرح بالهدية إنها « الحلاوة التركي » التي كان يتفنن أهل المدينة في صنعها ، وكثير ما كانوا يصنعون في المنازل من الأطعمة ، وقليل جداً ما كانوا يجلبونه من أطعمة من السوق ، وكان الأكل في السوق عند أهل المدينة عادة غير حميدة .

آخر الكلام :

لم أنس أياماً لنا في قُربه . .
بين الحمى واللابتين وفارع
بقيت لنا أشواقها فكأنها
قل للمدينة قول صب ظامئ
أنا من علمت محبة وصبابة
هل لي إلى تلك المعالم نظرة
ومعاهد التنزيل والبلد الذي
وإلى العقيق وعروة والعنبريـ

ولياليا كانت زمان صفاء
والسَّيح والعاقول والزوراء
حلم مضى في عالم الإغفاء
للمصطفى ولعَيْنِها الزرقاء
ليس المحب وغيره بسواء
وإلى جلال القبة الخضراء
هو منيتي والروضة الفيحاء
ة والمناخة والنقا وقباء





لم أكن أعرف هذا الرجل الذي كان يسكن الدار الملاصقة لدار آل الخريجي ، شديد بياض الوجه ، شديد بياض الملابس ولعل ما يميز ملابسه تلك الكوفية الأنيقة التي تشكل مع الجبة البيضاء ضرباً فريداً من اللباس الذي اختفى تماماً من الحياة العامة في المدينة ، يخرج هذا الرجل من داره في الباب الجديد قبل وقت حلول الصلاة فيقصد المسجد ويجلس في مقدمة الصفوف في الروضة المطهرة ، فلقد كان شيخاً للروضة هكذا كانوا يطلقون عليه في تلك الحقبة ، ولقد عرفت فيما بعد اسم هذا الرجل الذي كان يجذبني مرآه إنه الشيخ عثمان مهرجي - رحمه الله - ولقد خلفه في عمله هذا شيخ آخر من أهل البلدة الطاهرة وهو المرحوم عمر كمال ، كان نازحاً عن المدينة لفترة طويلة في بلاد الهند ، وحدث ذات يوم أنني كنت أجلس في حانوت الصديق أسعد نور الذي كان مواجهاً لباب السلام ، كان الوقت بعد صلاة العشاء والشباب والشيوخ يمسكون بالمكانس ينظفون مسجد رسول الله ﷺ وشيوخهم من آل طاهر يسير خلفهم ليشرف على أداء عملهم وإنه ليشتد حيناً عليهم فتحس أنهم يخافونه ويرفق بهم حيناً آخر فيمازحهم ويداعبونه ، في ذلك الوقت الذي كان يخيم الهدوء فيه على كل ناحية من نواحي المدينة ، سمعني الشيخ - كمال - أردد أبياتاً من قصيدة سعد الدين عبد الجليل برادة المعروفة والتي يقول في مطلعها :

عن در مبسمهما عن دمع أجفاني عن الشقيق كذا عن خدها القاني
عن المحيا عن البدر المنير وعن سود الغدائر عن ليلات أشجاني

وهي قصيدة يتشوق فيها إلى موطنه « المدينة » عندما كان مقيماً
بأرض الشام وقد كف بصره ، وما إن انتهيت من ترديد بيات هذه
القصيدة التي كان كثيراً ما يترنمُ بها أصحابُ الأصوات الحسنة في بلد
الرسول ﷺ حتى رأيت الشيخ كمال رحمه الله يزيح نظارته ليمسح
دموعاً انسكبت من عينيه ، ونظر إليّ ملياً يطلب مني أن أعيد على
مسمعه الأبيات ولعلي عرفت منه أنه عاصر الشاعر سعد الدين الذي
قضى فترة من حياته متنقلاً بين أقطار عديدة ، وقد أخبرني المرحوم
الشيخ جعفر إبراهيم فقيه - رحمه الله - أن سعد الدين هذا ووالد
الشيخ جعفر قد أصهرا من أسرة واحدة من المدينة . .

لقد عرفت العنبرية بدورها التي احتضنت أهل الفضل والعلم
والمعرفة والشيخان سعود ومحمود دشيثة كانا يسكنان هذا الحي ، آل
موسى الذين اشتهر منهم الكاتب علي موسى صاحب الرسالة الهامة
في تاريخ المدينة والتي قام بنشرها الشيخ حمد الجاسر وقدم لها المرحوم
السيد عبيد مدني ودار آل موسى ما زالت تقوم على مدخل الهاشمية
على يمين الصاعد لباب العنبرية وعلى وجه التحديد أمام الدار العامرة
للسيد حبيب محمود أحمد ، ودار الشيخ إبراهيم حسوبة - رحمه الله -
وعلى مدخل زقاق السلطان كانت تقوم دار آل عامر ، الشيخ حسين
عامر - رحمه الله - والدا الشاعر الأستاذ علي عامر أمد الله في عمره ، كان
من رجالات المدينة المعروفين .

على مشارف المسيل الذي كان يطيب للناس رؤية المياه وهي

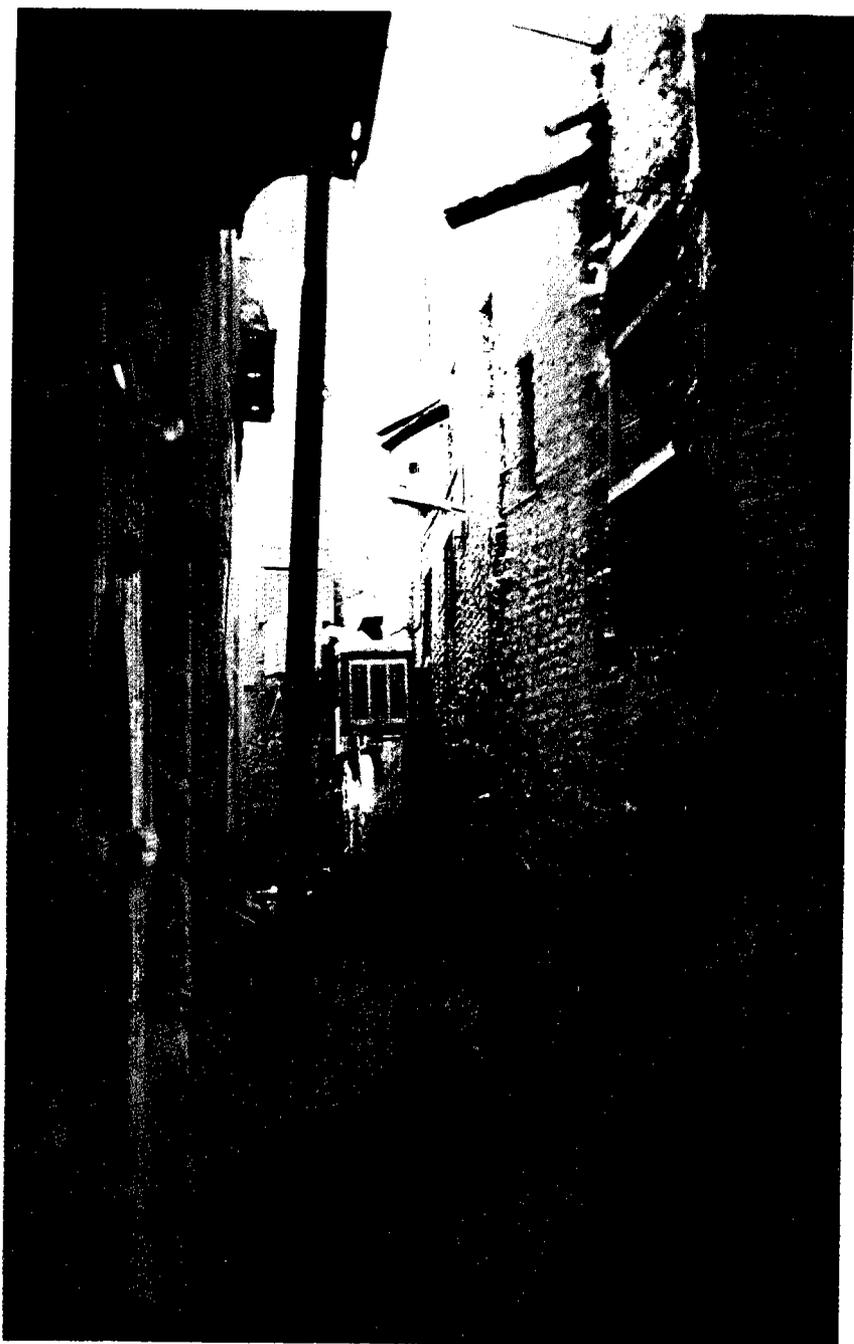
تنحدر بين جنباته ، نشأ رجال ساهموا في نهضة هذه البلاد والرقى بفكرها وإثراء سبل المعرفة فيها في مقدمتهم معالي الدكتور رضا بن محمد سعيد عبيد والذي كان والده الشيخ محمد سعيد عبيد - رحمه الله - من وجهاء المدينة وأهل الفضل فيها ، ومنهم الصديق الدكتور السيد هاشم عبد الله يمانى الذي سكنت أسرته الكريمة هذا الحي حقة من الزمن وعلى وجه التحديد في حوش مناع الذي ما زال يقوم جزء منه على مدخل باب قباء ، ولا بد أن أشير إلى أن السيد عبد الله يمانى أمد الله في عمره نشر العديد من كتب السنة النبوية وكثيراً ما جلست بحكم زمالتي وصداقتي لأبنائه الكرام ، إلى السيد المذكور في مكتبته التي كانت تقوم بالقرب من الحرم النبوي الشريف وكان - شافاه الله - صديقاً لعدد من علماء الحرمين الشريفين وآل الخطاب - أصهار آل اليماني - كان بعضهم يسكن حي قباء وقد عرفت المرحوم الشيخ عبد المجيد خطاب والد الأستاذ الدكتور عزت خطاب وكان صديقاً لعبد الستار بخارى والأفندي محسن بري والشيخ حسين برادة رحمهم الله جميعاً والشيخ عبد المجيد واحد من الرجال الذين ساهموا في أندية الأدب ومنتدياته التي كانت تعقد في رحاب البلدة الطاهرة ، لقد ارتفعت كلمة الإيمان من فوق سائها وشع نور العلم من بين سواري مسجدها وولدت الكلمة الشاعرة بين ظلال نخيلها ، وسوف يأرز الإيمان إليها كما تآرز الحية إلى جحرها كما أخبرنا بذلك أصدق القائلين وسيد المتحدثين - صلوات الله وسلامه عليه - .

آخر الكلام :

هذي المدينة قد بدت أعلامها والعنبرية بابها المأهول
فاملأ عيونك من بلاد قد ثوى فيها النبي وقد مشى جبريل

تجري العيون بها زلالاً صافياً
فيها النبي وصاحبه وآله
والقبة الخضراء فيها قد غدا
يا أهل طيبة حسبكم بجواره
أنواركم سطعت وتالد مجدكم
وأنا المدين لك بحسن صنيعكم

سيحون يأسن عندها والنيل
ومزاره والوحي والتنزيل
منها على رأس العلا إكليل
بلد تشد له الرحال جميل
باق وليس لفضلكم تحويل
ما في المدينة يا سعاد بخيل





يظهر طرف من مَبْنَى رباط الميمن المشهور والذي بنيت واجهته من الحجر المنقوش

أقطع هذه المسافة بين « كوبري المدرج » ومدرسة دار العلوم الشرعية حيث والدي - رعاه الله - جذب لي أن أدرس ، أجيل بصري في سماء المدينة الصافية ، أرى منائر المساجد ترتفع هنا وهناك ، وبيوتاً من الحجر المنقوش وخصوصاً تلك التي كانت تقوم خلف مسجد « الغمامة » - بعضها يعود لآل الخريجي - حزت كثيراً عندما علمت بهدمها كيف يهدم الإنسان تاريخه ، ويتخلص من مواضع حبه وألفته ، في الجهة المقابلة لمسجد الغمامة كانت تقوم دار كبيرة - وكانت مسكناً لغالبية آل البري - وهي أسرة عريقة في البلد الطيب ، برز منهم العلماء والأدباء وعرفت منهم شخصياً نفرأ كريماً « كالأفندي محسن بري » - رحمه الله - والد الصديق الأستاذ « إحسان بري » كان أنيقاً في ملبسه ، عذباً في حديثه ، موفقاً في أعماله ، طالما جلست إليه في داره التي كنت أعدها في تلك الحقبة بعيدة عن دارنا في قباء ، فلقد كانت دار الأفندي تقوم خارج باب الشامي على يسار الصاعد إلى طريق « سلطانه » وليس بعيداً عنها كانت تقوم دار الأديب والمؤرخ السيد أمين عبد الله مدني - رحمه الله - كما عرفت من آل البري الشيخ عبد الجليل بري ، وكانت داره تطل على شارع المناخة ، كان حفيماً بالناس في داره ، وكثيراً ما رأيت السيد حسين هاشم - رحمه الله - مع ثلثة من الأصدقاء يترددون كل عشية على الدار التي كانت تطل على أشهر

شارع في المدينة وأكثره حركة وأشدّه صخباً .

ألج سوق « الحبابة » ولم يكن مختصاً فقط بأصحاب الحوانيت الذين يبيعون الحب ، ولكنه كان يضم على جانبه الأيمن بعض حوانيت « العطارة » - بائعي التوابل والأعشاب الطبية القديمة - وعلى جانبه الأيسر أصحاب الحرفة المختصة بصنع أثاث المنازل أو من نسميهم « بالمنجدين » ، وسوق الحبابة هذا كانت تظله أشجار « السدر » يخرج الشباب من الحارة يبحثون عن الحمام يصيدونه وعن النبق يلتقطونه ، ومن هذا السوق كان ينطلق أهل المدينة بموتاهم وهم يحملونهم على أكتافهم إلى يمثواهم الأخير في « البقيع » .

أشياء عديدة - يا صديقي - لا تحتفي بها الذاكرة وأخرى تستقر فيها ولا نعلم السبب في ذلك لم أنس ذلك الرجل القصير القامة ، الأسمر السحنة ، حزامه في وسطه ، يمسك « بالمنخل » بين يديه لينخل به الحب - ربما كان الوقت قبل حلول شهر رمضان - وكثيراً ما كانت الناس تحتاج الحب في هذا الشهر الكريم ، ولكن فجأة يضع الرجل - المنخل - لقد رأى جنازة تمر من أمامه في السوق ، وإني لا أكاد أسمعها وهو يقول بصوت مرتفع « الموت يا غافل » تراه من كان يخاطب ، أصحاب الحوانيت المشغولين بشؤون دنياهم ؟ أم يذكر نفسه بحقيقة الحياة ؟ ليتك أيها الرجل المطبوع على الفطرة تعود - اليوم - فترى كم شُغِلْنَا بالدنيا ! ، وكم سعينا وراء السراب ! . كم قبضنا على الريح ! . ، ليتك تعود - اليوم - تُسْمِعْنَا مقولة لم تتعلمها في مدرسة أو تقرأها في كتاب ! لكنك - وأمثالك - من ذلك الجيل ، ترشدكم الفطرة فتصوغون خطابكم بعيداً عن الكلفة وأسباب الصنعة والتزويق .

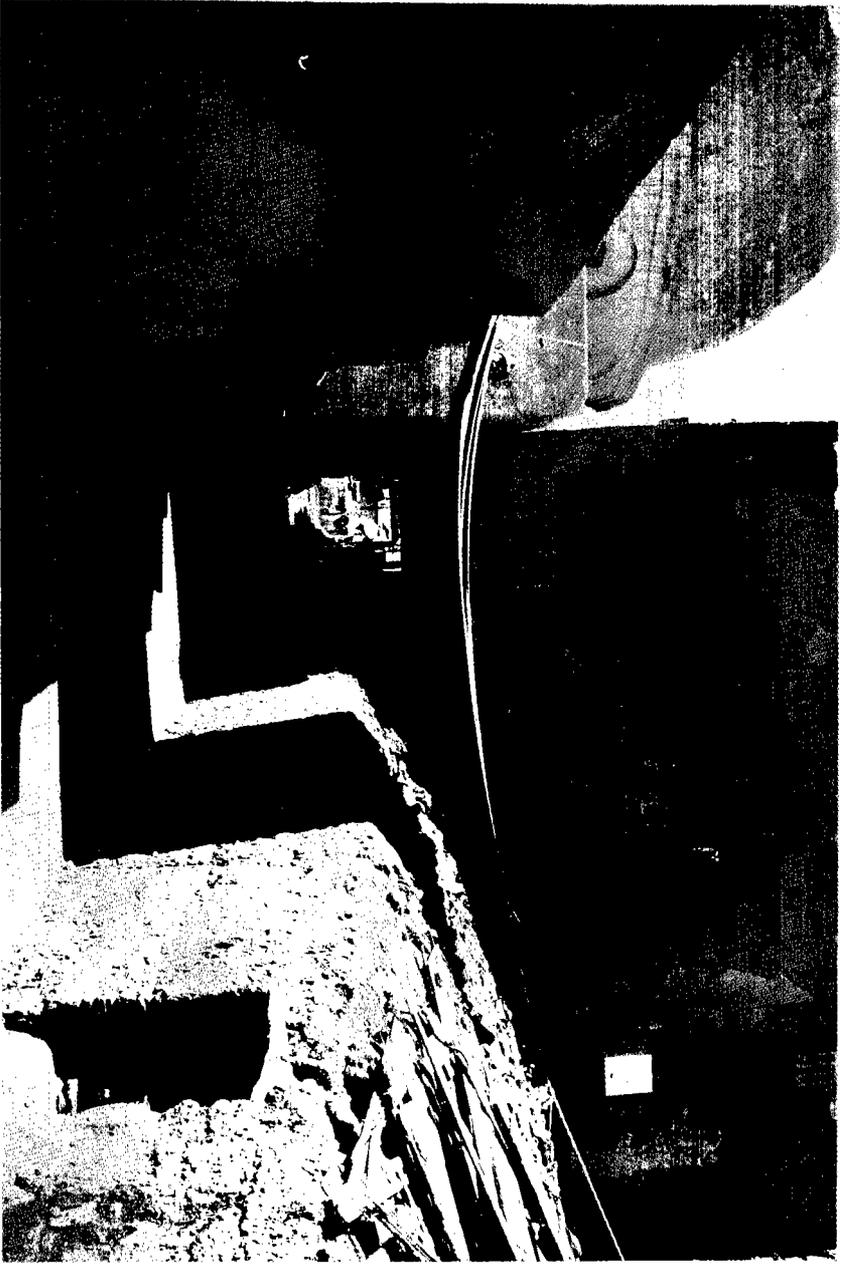
يا صديقي أنا أقف الآن على مدخل « باب المصري » لقد غيب الموت أهله ، ولكن صورهم لم تغب عن ذاكرتي فهي حفية بها ، دع القوم يتحدثون فأنا ما زلت أسمعهم ، ودعهم يبيعون ويشترون فأصواتهم أقرب ما تكون إلى قلبي ، ولكني لن أدخل بك اليوم - إلى عالم « سويقة » و« جوة المدينة » ورباط « الشامي » و« مقعد بني حُسين » ووكالة « الرقة » و« الكاموخ » .

تلك المعالم سوف يكون لنا معها حديث نستنتق به أخبارها العذبة ونقف من خلاله على أسرارها الغريبة ، فحتى يحين موعد ذلك الحديث أدعوك معي لتسمع صوت هذا الحادي الذي ينشد قائلاً :

ملاً الشوق مهجتي ويديا	وهداني الهوى صراطاً سويا
بت أشكولقائد الركب وجدي	وغرامي فقال : حث المطيا
لترى طيبة وتطفئ نار	الشوق فيها إذا رأيت النبيا
من بشيري بالوصل في الحب أني	أتلظى على البعاد قصيا



مبنى مدرسة الشفاء بحارة الأعوات ، وبيننا تطلّ واجهتها على هذا الشارع الداخلي للحارة ،
يصلها منفذ بالشارع العام المؤدّي إلى ساحة باب السّلام



صورة تُظهر عن كثب قبة حمام طيبة

أقف بك - الآن يا صديقي على مشارف باب « المصري » ولعل التسمية جاءت من ارتباط هذا المكان بالحاج المصري ونزوله فيه ، وهو واحد من أبواب سور المينة الذي كان آخر بناء له في عه السلطان سليمان العثماني وذلك في سنة ١٩٤٦ هـ كما يذكر ذلك المؤرخ المعروف الأستاذ / عبد القدوس الأنصاري - رحمه الله - وأميل إلى أن الاسم الذي كان يطلقه الناس على السوق الذي يتدء بهذا الباب ، والاسم هو « جوة المدينة » يدل على أن ما كان خارج هذا الباب يعده الناس في تلك الحقبة الماضية من أطراف البلدة ونواحيها البعيدة نسبياً عن دائرة الحياة ومركز النشاط التجاري فيها .

تدخل هذا السوق المسمى في كتب التاريخ باسم « الحدره » والذي يعود تاريخه إلى عصور الإسلام الأولى ، فتشعر بالنسمات الندية المنبعثة من أرضه المبلطة بالحجارة ، ولقد أدركت في بداية نشأتي قوماً يحملون الماء في « القرية » يرشون به الأرض ، وكان بعض من هؤلاء القوم يجلبون ماء بئر « عروة » المشهورة ويبيعونه للناس في أسواق المدينة ، وسوف تجد في هذا السوق صنوفاً متعددة من الحوانيت بعضها تخصص في بيع العطور والآخر يبيع الملابس أو الذهب وعرفت في هذا السوق حانوتاً لرجل من وجهاء المدينة كانت تربطه بوالدي روابط المحبة والألفة وهو السيد أحمد محضار - رحمه الله - .

وتنتشر في هذا السوق أماكن تسمى « بالوكالات » أشهرها وكالة « آل الرفعة » وهي الأسرة التي ينتسب إليها الشاعر المعروف الأستاذ / عبد الرحمن رَفَه - أمد الله في عمره - ، وفي تصوري أن هذه « الوكالات » ربما كانت أشبه بالنزل التي يقيم فيها بعض الزائرين عند قدومهم إلى المدينة ولقد قرأتُ أن هذا النوع من « النزل » يوجد في بلاد عربية أخرى كمصر والشام ، ولكن لا بد من القول أن بعضاً من الباحثين توصل إلى أن تصميم الأسواق في حواضر العالم الإسلامي والعربي كان مستمداً في الأصل من أسواق المدينة بحكم موقعها الديني منذ هجرة الرسول ﷺ واتخاذها عاصمة من بعده في عهد الخلافة الراشدة .

الصدیق الفاضل الدكتور غازي مدني ذكر لي أن دارهم كانت تقوم في هذا السوق - ولا أعرف شخصياً موضع هذه الدار- ولكني أدركت منذ الصغر أن لهذه الأسرة الكريمة التي برز منها في هذا العصر الأديان عبيد وأمين عبد الله مدني وشاركها في حياتها الاجتماعية والفكرية مشاركة إيجابية وفعالة ، أن لها دوراً في هذا السوق وكذلك في الناحية الأخرى القريبة من الشارع الذي كنا نسميه - درب الجنائز- .

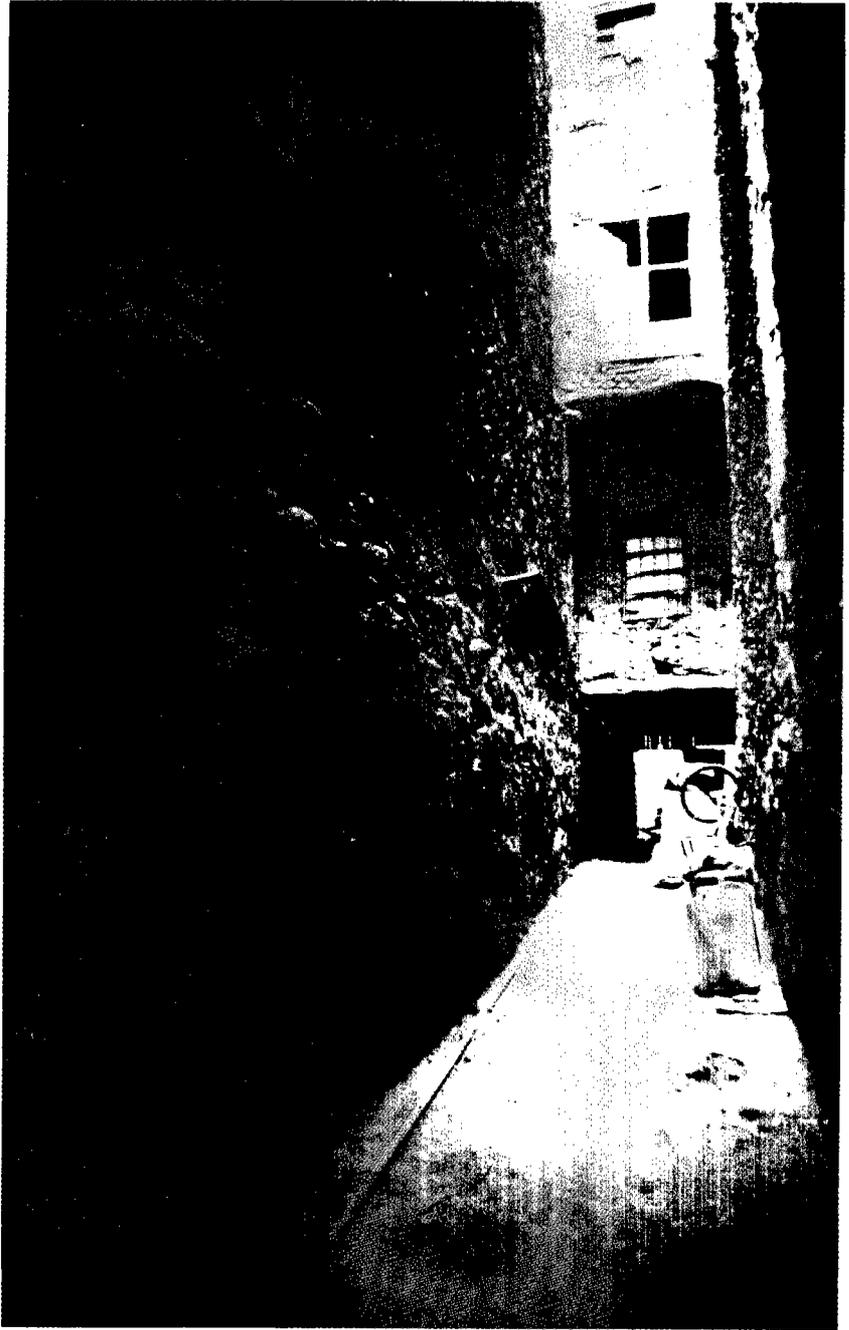
لم تكن الوكالات وحدها أو الدور المنقوشة بالحجارة والمطلة على السوق هي كل ما يميز هذا المعلم الذي يعد من المعالم البارزة للمدينة القديمة ، بل هناك معالم عديدة لا نستطيع وفقاً للمساحة المحددة لهذه المقالة - أن نسهب في وصفها أو الحديث عنها، ولكن لا بد للإشارة إلى معلمين هامين كانا يقومان قبل نهاية السوق من ناحية سوحة باب السلام ، أولهما زقاق كان يعرف باسم « الزندي » وكان يسكنه بعض من أسرة آل الأنصاري ، وهي من الأسر العريقة - نسبة

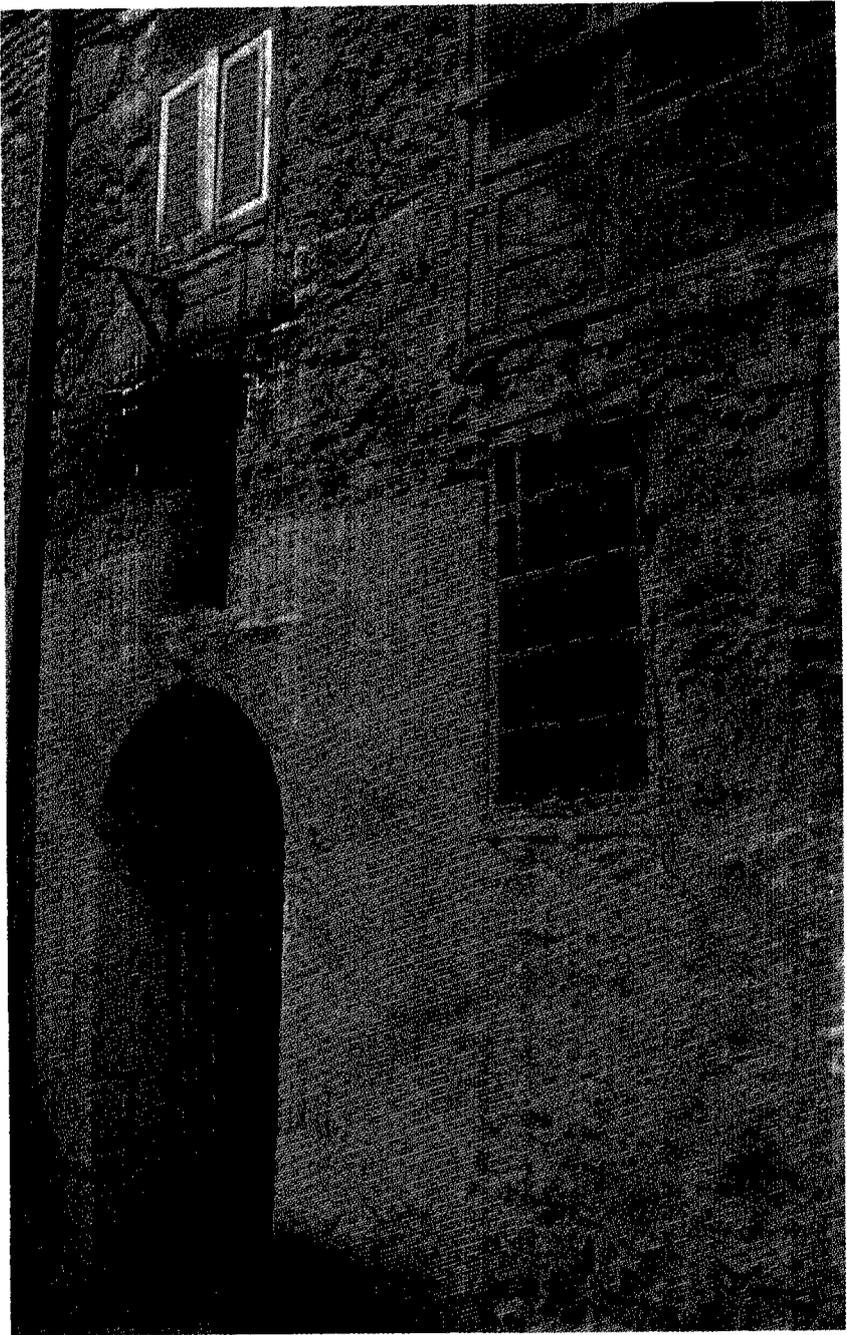
إلى الأنصار الذين نصرُوا النبي ﷺ ، ولقد أدركت الشيخ حمزة أنصاري - رحمه الله - الذي كان يقيم في ذلك الزقاق وهو أخ لعثمان وعلي أنصاري - أمد الله في عمرهما ، وربما وجدت ارتباطاً بين اسم هذا الزقاق وبين سكن نفر من آل الأنصاري فيه ، فصاحب « تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من أنساب » يذكر أن بيت الأنصاري « يعرف قديماً ببيت الزرندي نسبة إلى زرنَد وهو كما ينقل عن الفيروز آبادي في كتابه المعروف « المغانم . . . المستطابة في معالم طابة » قرية من أعمال المدينة المنورة من جهة الشمال بقرب وادي القرى والفيروز آبادي ينقل ذلك عن شيخه عبد الله محمد بن يوسف الزرندي الأنصاري - محدث حرم رسول الله - ﷺ .

أما المعلم الثاني فقد كان يقوم في الجهة المقابلة لزقاق الزرندي ، فهذا الأخير كان يقع في الجهة التي على يمين القادم من أعلى السوق إلى أدناه متوجهاً إلى الحرم النبوي ، والمعلم الآخر كان في الجهة اليسرى ، وهو « رباط » كانت غرفه تطل من الناحية الأخرى على شارع العينية ، ولما سألت زميل الصبا الأستاذ عبد الرؤوف طاهر عن اسم ذلك الرباط أجابني بأنه يعرف باسم الشام أو الشامي .

خاتمة

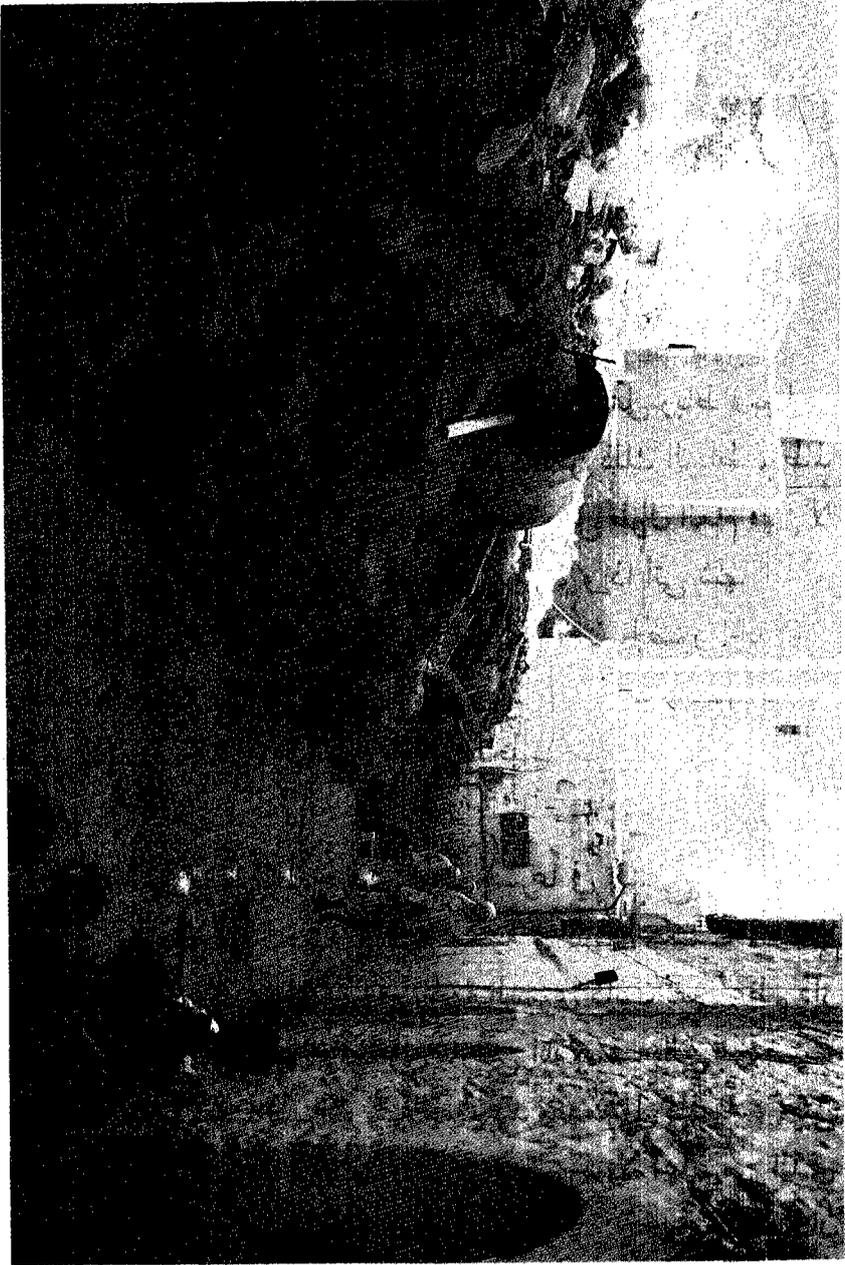
هاتفني مشكوراً السيد : علي بن حسين عامر وهو واحد من الرجال الذين يعرفون المدينة ومعالمها وتاريخها معرفة دقيقة ، وصحح - جزاه الله خيراً - معلومة أوردتها في الحلقة (١٩) وتتصل بموضوع منزل جدّه السيد عامر - رحمه الله - في حي العنبرية الذي يقع كما يذكرنا أستاذنا في أول زقاق « العبيد » ثم يليه منازل آل موسى وآل جعفر ، كما أضاف لي معلومة لم أعرفها من قبل وهي أنه كان للشيخين محمد وسعود أحمد دشيشة أخ آخر يعرف باسم عبد الله .
فجزى الله أستاذنا الكريم خيراً وأطال لنا في عمّره . .





في حارة الساحة كنت أتردد بين الحين والآخر على رباط « بودل » - صديقنا المرحوم - محمد عبد المؤمن - كان يسكن ذلك الرباط ، طالما حدثني عن امرأة مهاجرة في حب الله ورسوله تعمل طوال العام فهي لا تعيش كما يقال إلا من عرق جبينها وكَدَّ يديها ، وإذا أتى شهر الربيع أقامت مأدبة في سبيل الله ، الإخوان يتسابقون لحضور الجلسة ، الغرفة الصغيرة في الرباط تتسع لذلك الجمع ، والعجوز تصر على أن تطبخ بنفسها طعام الأحاب ، الكل يتحدث عن مائدتها ويشني على صنعتها في الأكل .

في الحارة أيضاً طالما حثتُ الخطو مسرعاً في الشارع الذي كان يقوم في بدايته من الجهة اليمنى مكتبة « عارف حكمت » وكانوا يُطلقون عليها « كتب خانة » وفي الجهة اليسرى كانت تقع أعظم دار في التاريخ دار أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - والتي احتضنت المصطفى - عليه صلوات الله وسلامه - عند مقدمه إلى المدينة ، حتى إذا ما تجاوزتُ السقيفة في ذلك الشارع الضيق - ولا أعلم من الذي أخبرني أن عالم المدينة وشاعرها المعروف « عمر بري » - رحمه الله - كان يسكن في ذلك الشارع ، وليت الصديق « عبد المجيد بري يوثق لي معلومة كهذه ، نعم إذا ما تجاوزتُ السقيفة توجهتُ صوب الرباط الذي كان يسكنه صديقنا « محمود عيسى » - رحمه الله - والده كان من



الطريق إلى حمام « طيبة » وهو البناء الذي ترتفع فوقه القبة الحصصية ، وإلى اليمين يبدو
مدخل أحد الأربطة التي كانت تنتشر في أنحاء الحارة

خيرة المهاجرين في المدينة ، يستدين الناس منه لأنه كان صاحب حانوت في سوق الفاكهة « القديم » وقبل موته تخلص من كل « سندات الديون » وأعلن أنه سامح أصحابها ، ما أكرم الحديث عن رجال كهؤلاء ، وما أطيب الحياة التي عاشوها .

بعد طلوع الشمس ، وحلول وقت الضحى الجميل ، وبين الدكة وباب جبريل ، حيث يسطع النور وتتجلى الإشراقات ، قابلت صديقي « الزين » . طلبت منه أن يجلس ، الحرم هو المكان الذي يجمع شملنا ، وقراءة السيرة هي وثاق المحبة بيننا ، فإذا هو يطلب مني أن أذهب معه لنزور صديقنا « ابن عيسى في الرباط المذكور ، ولما سألته لماذا هو متعجل في هذه الزيارة قال : « الزين » ! البارحة رأيت محموداً في المنام قد حلت عليه رحمة الله ، ولا بد لي أن أبشّره ، سرّت بجانبه لا أسمع إلا تمتات الذكر من شفته ويوم بلغنا ذلك المدخل الطويل الذي يصل باب الرباط بتلك الغرف المتناثرة على جوانبه بادرتنا أصوات تنتحب بالبكاء ، لقد مات « محمود » وإذا الزين ينظر إلي قائلاً ، تلك رحمة الله يا بُنيَّ .

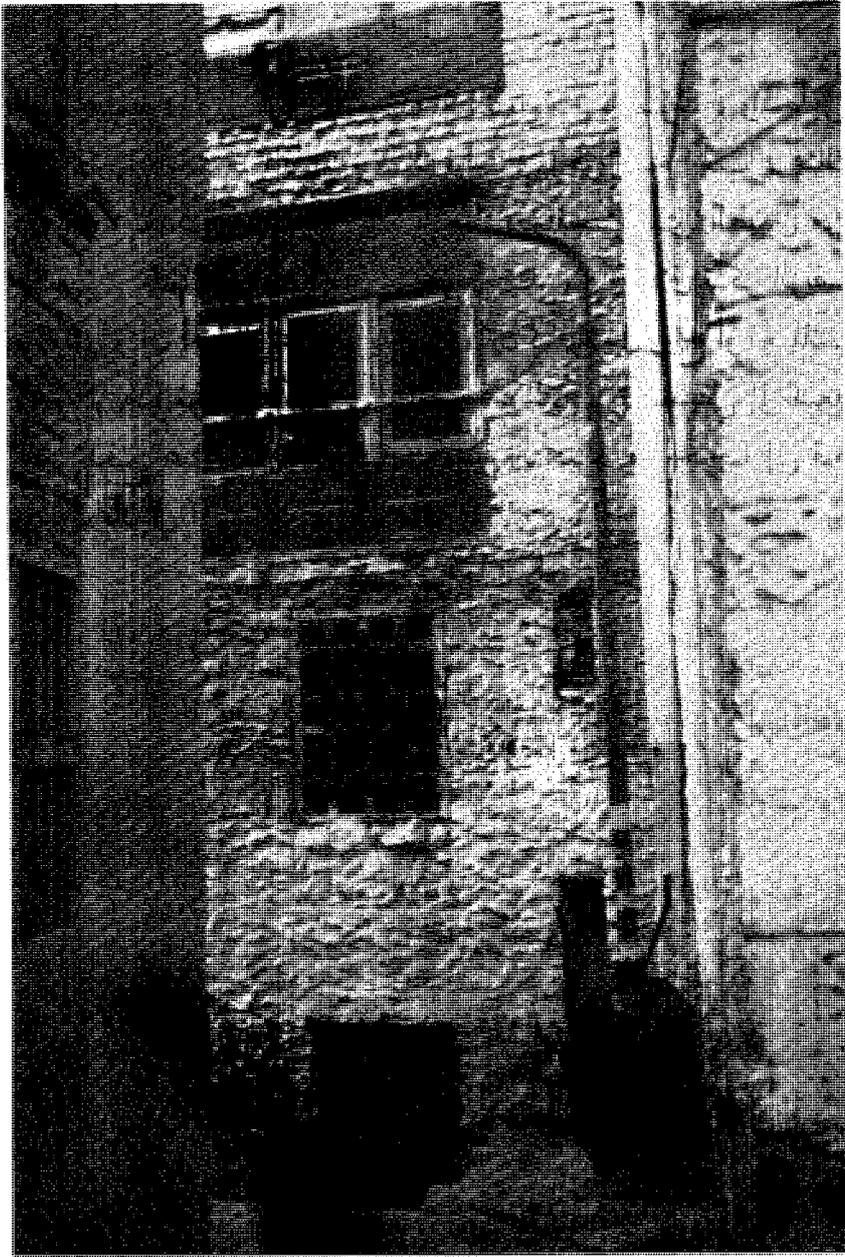
« يا زين » حدّثني عن من غيّبهم الدار ، حدّثني عن الليل جميلاً بين الحارة والمزار ، حدّثني عن فلق الصبح من بين غابات النخيل في رباقبا وقربان ، حدّثني عن مجالس انتفت عنها الأكدار ، والسنة تتهيب الدنو من لغط القول وتسأل المولى موجبات الرضوان ، حدّثني فالوحشة تملأ قلبي وكثيراً ما تُبكيني الفُرقة ويورّفني فِرَاقُ الأحباب .

يا أيا الفيض ، يا جَلِيسِي فِي الرَّحْبَةِ بَيْنَ بَابِ السَّلَامِ وَبَابِ الرَّحْمَةِ ، يَا مُسْتَنْدَأً عَلَى عَصَاهُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَضْرَةِ ، أَعْيَانِي الْبَحْثُ

عنك وكنت أَلْفَاكَ قريباً من دور الأحباب ، والقمر يرسل شعاعه في
سكون الليل ، حتى إذا انفتح الباب كنت المسرع إلى الروضة
والسائل من رب العباد الرحمة ، يا صديقي « كامل » كم كنت تقف
في شارع العينية تطلب من الناس أن يديروا ظهورهم للدنيا ، تسلك
الدروب الضيقة وتنتقل بين الجموع المحتشدة ثم تطرق أبواب
المحتاجين وتواسي المعدمين ، تقضي الليل ساهراً والناس نيام ، وفي
الصبح يجدونك بين « الحلة » والساحة ، تدعوهم أن يخرجوا الصدقة
فيذكوا نفوسهم ، ويعينوا ضعيفهم ، ويتفقدوا مريضهم ، بالأمس
كنت تذكر القوم وهم أقل اشتغالاً بالدنيا ، بالأمس كنت تسألهم
فيجيئون وتدعوهم فيلبون ، ليتك اليوم تعود فتذكرهم بالرحمة ،
لتنزعهم من هموم الدنيا ، لقد نَضِبْتُ يا صديقي دَفَقَاتُ الحُبِّ في
نفوسنا ، وصَوَّحْتُ أزهارُ في دواخلنا طالما سقيناها بالذُّكْر ونميناها
بشعاع الروح ، وحصنَّاها بنور الإيمان ، اليوم يا صديقي ندفن موتانا
ثم لا نلبث أن نتحدث عن رصيدنا من الدنيا ، ونزور مرضانا فلا نجد
ما نشغل به الوقت إلا الثناء على متاع الدنيا المستعار وخروقها البالية
ومساكنها الباذخة والتي كل حظنا منها شقوق نتطلع منها إلى من يطرق
أبوابنا فمن أحببناه أجبناه ، ومن لا تربطنا به منفعة دفعناه ، لقد
ذُكِّرْتَنِي يا صديقي « بِحَبْلِ الباب » ، الذي كنا نشدهُ إلى أعلى فيفتح
الباب أمام القادم ، لا نسأله لماذا قدم إلينا ، وكم من الوقت يقضيه
بيننا ، وجوه أهل الدار لا يعترها عبوس ، وأيديهم مبدولة بالعطاء ومن
دخل دار صديقه تبددت عنه هموم الدنيا وزال عنه عناء النفس
واطمأنت جوارحه برؤية الأحباب .

يا صديقي في دار الحلبي - رحمه الله - وفي زقاق الطوال ، رأيت

القوم يجتمعون لأول مرة ، سمعت المنشد يصدح بالصوت ، والمجلس
يختم بترتيل آيات من الذكر ، هناك قرأت في وجوه القوم الحب ، هناك
في طيبة تغذتُ روعي من نبع الإيمان وصافحت يدي الطيبين من
الناس . لهم قلوب لا تنطوي على حقد ، وأخلاق تنكر الزيف
والغش ، أن أحبوك اعلموك بالحب ، إن تنافرت الأرواح أو اختلفت
الآراء لم يضايقوك أو يؤذوك ، ما أحوجنا - اليوم - يا صديقي إلى سعة
أفق تدفع عنا أشباح التعصب وأوهام التحيز ، ما أحوجنا إلى قوم
يؤمنون بأن في الحياة متسع للجميع .



ارتفاع مستوى الشارع عن مَدْخَلِ المنزل يدلُّ على قدم منطقة حارة الأوغوات فكل طبقة مِنْ طبقات الأرض تُمثِّلُ عَصراً مُحدِّداً من العصور منذ بناء المسجد النبوي الشريف في العهد النبوي ، وقيام البناء حوله

في حارة الأغوات وبعد أن نجتاز سبيل « المنادي » في طريقنا إلى « البقيع » كان يقع رباط « ياقوت المظفري » والذي يعود بناؤه إلى بداية القرن الثامن الهجري « ٦٠٧ هـ » كما كانت تشير الكتابة المنقوشة على بابه ، في ذلك الرباط كان يسكن نفر من المهاجرين ، عرفت منهم الحاج عبد الله وصديقه الحاج النور - رحمهما الله - محافظان على أداء الصلوات في المسجد النبوي مع أنهما فقدتا نعمة البصر في آخر حياتهما ، لا يعرفان من المدينة إلا دكة الأغوات « في المسجد . . و « الرُستمية » في الحارة ، يؤمان هذا الموضع الأخير بعد عصر كل يوم حيث يلتئم الشمل ، ويطيب الحديث ويتذكر القوم أياماً خلت وعهوداً انقضت .

ذات عام من الأعوام ، وفي يوم عرفة حيث تنطبع أجواء المدينة بهدوء غريب ويخيم عليها طمأنينة الإيمان وسكينة ، الصلاة تقام في المحراب النبوي بالروضة وصفوف المصلين قليلة العدد ، في ذلك اليوم الذي يعود إلى بدايات التسعينات الهجرية ذهبت إلى « الرُستمية » فهي المكان الذي كنت أحمل إليه كتبي حتى تتسنى لي فرصة القراءة والاطلاع وهي موضع أنسي وجلاء خاطري ، وكان يشاركني هذا الشعور من بين أصدقائي الأستاذ أسامة أحمد السنوسي ، فشاهدت يومها الأستاذ أحمد عثمان - رحمه الله - واحد من جملة أساتذتي في دار

العلوم الشرعية ، يدخل من باب المبنى العتيق يقبل رؤوس كبار أهل الحارة « طيفور ، والعم حسب الله » ويقول : « كُلُّ عام وأنتم بخير » أنتم بركة الحارة . . وتظفر دمعة من عيني على هذا الشعور الإنساني الرفيع وهذا التواصل الذي كان سمة من سمات مجتمع بلد المصطفى ﷺ بكل طبقاته .

وبالمناسبة فأستاذنا أحمد عثمان هو شقيق لأستاذ الجليل عبد الرحمن عثمان - رحمهما الله - وكان هو الآخر مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية ، وكان شاعراً مجيداً ، قرأت له شيئاً من شعره في مدح الرسول ﷺ ، ولعلي عرفت مما قرأت له المنبع الذي تتدفق منه شاعرية صاحب « واستوت على الجودي » ابنه الأستاذ الدكتور أسامة عبد الرحمن عثمان ، وشقيقه أنس ، صاحب « الموانىء التي أبحرت » وإذا كان أسامة وأنس شاعرين مجيدين في زمن أصبح قول الشعر فيه لكل من هب ودب ، وأصبح يلج ساحته كل متطفل وجاهل ، وهذا من جنابة بعض صفحات الثقافة التي أضحت تعني بالغث ، وتستبعد الأصيل ، وتمعن في إفساد الذوق تحت مسميات الحداثة والغموض .

إذا كان المذكوران شاعرين مطبوعين فإن أختاً ثالثاً لهما يملك مقومات الناقد المتمكن ، والباحث المتعمق في آداب اللغات الأخرى ، وهو الصديق الدكتور نعيمان عثمان ، ولكن نعيمان مثل إخوته الكرام يؤثر الصمت ويكره الضجيج . مع أن الساحة النقدية في حاجة إلى معرفته واطلاعه بعد أن كثر الأدعياء الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويدعون الاطلاع على آداب الأمم الأخرى وهم لا يفقهون من أبجدياتها شيئاً ، بإمكانهم أن يتحدثوا في كل شيء لكنني أتوسل إليهم أن يصمتوا فنحن أحوج في هذا الحقل إلى مقولات المتخصصين .

فيه من أمثال الدكاترة عزت خطاب وسعد البازعي ونعيان عثمان الذي دفعنا الحديث عن أسرته إلى هذه العطفة حول هذا المطلب النقدي الهام .

في باب المجيدي عرفت رباط « عزت باشا » لا أعلم إذا ما كان وقفه ينتمي لأسرة أسعد العابد مستشار السلطان عبد الحميد آخر سلاطين الدولة العثمانية الذي اتخذ من هذا الأخير ومن السيد أحمد أسعد الجرد الأكبر لأسرة آل أسعد مستشارين له في الآستانة ، ولم أعرف الرباط وحده ولكنني عرفت أيضاً بعض ساكنيه منهم إبراهيم ولي - رحمه الله - الذي كان شيخاً للرباط ومن قبله كان الشيخ عبد الله الرفاعي - أسكنه الله فسيح جناته - لم أدرك هذا الأخير ولكنني عرفت عدداً من أبنائه منهم الأستاذ زكي الرفاعي وأخوه سليمان .

لقد غاب عن عيني رجل من المجاورين اسمه عثمان كنت دوماً أراه بالقرب من شجرة السدر التي كانت تقوم في سوق الفاكهة والذي هو في الأصل موضع « الخان القديم » في المدينة ، عثمان كان مع مجموعة من أصحاب القلوب الطيبة يقوم بطحن الحبوب بوسيلة بدائية كانت موجودة في الحقة الماضية في المدينة وهي المهراس الذي يصنع عادة من الخشب ، ولكن الذي أغراني بالحديث عن عثمان الذي علمت من أحد أصدقائي أنه توفي قبل شهور بعيداً عن الأرض المحبوبة - على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم - نعم أغراني عدم احتفائه بالدنيا وزهده في متاعها الفاني ، كان يمشي حاسر الرأس ، حافي القدمين ، لا يكاد يلتفت إلى شيء ، ولكنه مثل بقية المجاورين ، جاءوا إلى هذه الأرض حُباً في ساكنها فهم المتأدبون في جواره ، والمتبعون لسنته والنافرون من كل دعاوى الجهل وسبل الباطن .

حدثني يا صديقي أين اختفت الوجوه ، وكيف تفرق الجمع ،
أسمعني صوت الحادي فلطالما أثار في نفسي الشوق وانتزع من عينيّ
الدَّمْع ، وأغرقني في بحر الحب فنفسي قد كبلها القيد ، والقيد يا
صديقي من صنع نفسي وأثار يدي ، متى نتطهر من حب الدنيا الذي
تملكنا وتلبس مشاعرنا فنسينا قريباً أضحى متطلعاً إلى سؤال الأهل
عنه ، وتغافلنا عن صديق كنا في الماضي نلتف حوله . .

إننا يا صديقي نلهث دون أن نسأل أنفسنا ، هل وعينا دورنا في
هذه الحياة ؟ ، هل أدينا حقوقاً أفترضها الله علينا ؟ ، هل استأثرت منا
القلوب بمثل تلك الرعاية التي نوليها لمظاهرها أو أشكال بيوتنا ؟ ، هل
استطعنا حقاً أن نضبط سلوكياتنا فلا نبني مستقبلنا على حساب هدم
ذوات الآخرين ؟ ، هل كاشفنا نفوسنا بمثالبها وقاومنا جموحها وداوينا
أنانيتها ؟

إننا يا صديقي إن لم نفعل ذلك فوا أسفاه على علم ندعيه ،
ومعرفة نتباهى بها ، وسوف يكون هذا العلم وتلك المعرفة شاهدي حق
علينا في دنيانا هذه يوم نرحل عنها ، وبين يدي الخالق الأعظم في
آخرتنا عندما تنصب الموازين القسط وتوفي كل نفس بما كسبت .

